صورة يوسف بن تاشفين (ت٥٠٠هـ/١١٠٦م) في ضوء الروايات: التاريخية، والأدبية

امتنان عثمان الصمادي* وآمنة سليمان البدوي*

ملخـص

تهدف هذه الدراسة إلى إبراز صورة القائد المغربي يوسف بن تاشفين (ت٥٠٠هـ/١١٠٦م) في ضوء الرؤية التاريخية والأدبية، الشعر تحديدا، بوصفه قائداً عسكرياً أسهم في تأخير سقوط الأندلس أكثر من أربعة قرون. وتنبثق أهمية الدراسة من حجم التفاوت في الروايات والأخبار في ما يتعلّق بدوره العسكري والسياسي بين المصادر التاريخية، والأدبية؛ إذ برز الاختلاف في تفسير الأحداث التي جرت وتأويلها، من جهة، وفي شح النصوص الشعرية التي قيلت في مدحه والتغني ببطولاته، باستثناء بعض المقطعات، وقصائد المديح التي قيلت فيه والمعتمد بن عباد إثر انتصارهما في معركة الزلاقة (٤٧٩هـ/١٠٨٦م) من جهة ثانية.

ولتحقيق ذلك، وقفت الدراسة على استقصاء ما ورد ذكره في المصادر التاريخية والمراجع العربية والأجنبية الحديثة، وجمع ما قيل فيه شعرا من المصادر الأدبية، والدواوين الشعرية من جهة ثانية، وذلك للإجابة عن السؤال: هل ثمة تفاوت في ذكره بين الروايات التاريخية والنصوص الشعرية، وما أسباب ذلك التفاوت، سعياً إلى إنصافه عن طريق استجلاء صورته في الإيماءات والإشارات والرموز والمعاني الدينية المكثفة، في ما توصلت إليه الدراسة من شعر.

الكلمات الدالة: ابن تاشفين، المعتمد، المرابطون.

المقدمة

لعل الباحث في شخصية سياسية وعسكرية من مثل يوسف بن تاشفين (ت٥٠٠هـ ـ/١١٠٦م) بوصفه بطلاً وقائداً حربياً، يتوقع غنى كتب الأدب بالشعر الذي يصف معاركه، ويمجد بطولاتـه كما درجت عادة العرب على ذلك، فيكون مثل هذا البحث من أسهل البحوث وأيسرها. لكن ذلك لم يكن، فشخصية يوسف بن تاشفين التي أولتها كتب التاريخ العناية، أغفلتها كتب الأدب والـدواوين الشعرية لشعراء عاصروا فتوحات هذا القائد ومعاركه، باستثناء قصائد الشعراء الذين كان شعرهم موجها على نحو مباشر إلى المعتمد بن عباد(ت٤٨٨هـ/١٠٩٥م) عقب معركـة الزلاقـة، وقـد استحوذ المعتمد أبرز، ملوك الطوائف، على شعبية النصر، وجاء ذكر يوسف بن تاشـفين فـي مقطوعات أو أبيات قليلة ضمن قصائد مطولة نظمت في مدح المعتمد.

في هذا السياق، يحسن التنويه إلى دور كل من النص التاريخي والنص الشعري في تبين ملامح بطولة القادة، ولا يخفى على الدارسين أن النص التاريخي عادة ما يلم بجميع التفاصيل الخاصة بالحدث والقائد: صفاته وبطولاته وغيرها، في حين أن النص الشعري يمثل انعكاس ذلك

*قسم اللغة العربية، كلية الآداب، الجامعة الأردنية. تاريخ استلام البحث ٢٠١٢/٦/٢٥م، وتاريخ قبوله للنشر ٢٠١٢/٢/٢م.

الحدث وأثر تلك القيادة في نفوس الناس والشعراء.

كما لا يفوتنا القول إن شعراء البلاط عادة ما يكون همهم التكسب، وما مدحهم لابن تاشفين إلاّ لنيل رضا المعتمد، ومثل هذا الشعر الموجه لأغراض المدح والمبالغة في إرضاء الممدوح لا نستطيع أن نعتمده لنقل الحقيقة، وإنما نستضيء به في نقل جزء من الحقيقة التي تستند إلى الأمانة في نقل مشاعر الشعراء إزاء الحدث التاريخي، ونقارنه بما جاء في المصادر التاريخية، في محاولة جادة لاستكمال الجوانب الغائبة في شخصية هذا القائد ، الذي وحد الأندلس وخلصها من حكم ملوك الطوائف(٤٢٢ت-٤٨٧هـ/١٠٣١-١٠٩٤م)، مسهما بذلك، في تأخير سقوط الأندلس أكثر من أربعة قرون.

واطلعت هذه الدراسة، بالإضافة إلى جل المصادر التاريخية والأدبية، على دراسات حديثة تناولت يوسف بن تاشفين، ومن أبرز تلك الدراسات: "أمير المسلمين يوسف بن تاشفين، قاهر الصليبيين في الغرب وموحد المغرب والأندلس"، للكاتب إبراهيم الجمل [١] وهي دراسة عامة اهتمت ابن تاشفين في إطار الشخصية القيادية والعسكرية وتاريخ المعارك التي خاضها بلغة أقرب إلى الإنشائية، ولم تعن بالشعر. ودراسة جامعية بعنوان "يوسف بن تاشفين والأندلس" للباحث محيي الدين عبد حسين عبدا [٢] عالجت الجوانب السياسية، والعسكرية، والقيادية لابن تاشفين. ودراسة حامد محمد خليفة بعنوان "يوسف بن تاشفين موحد المرابطين ومنقذ الأندلس من الصليبيين"[٣]. ودراسة للباحث رائد عبد الرحيم بعنوان "صورة الأمير يوسف بن تاشفين في أدب الرسائل في عهدي الطوائف والمرابطين"[٤]، استجلت صورته في أدب فن الرسائل فقط، دون الشعر، رصدت الرسائل وتتبعها كتلك التي تتعلق بجواز ابن تاشفين للأندلس. ودراسة خامسة بعنوان "واقعة الزلاقة كما صورها الشعر الأندلسي" للباحث منجد مصطفى بهجت[٥]، استجلت الشعر الذي قيل في الواقعة نفسها وليس في يوسف بن تاشفين تحديدا.

ومما يلفت الانتباه ما قدمته دراسة الباحث رائد عبد الرحيم من إفادة في استجلاء صورة ابن تاشفين من خلال المراسلات التي اشتهر بها أبو بكر بن القصيرة[٦]،

---

١. الجمل، إبراهيم، **أمير المسلمين، يوسف بن تاشفين، قاهر الصليبيين في الغرب وموحد المغرب والأندلس ٤٠٠-٥٠٠ هـ،** مطبوعات الشعب، القاهرة، ١٩٧٦م.

٢. عبدا ، محيي الدين عبد حسين، **يوسف بن تاشفين والأندلس، ٤٧٩-٥٠٠هـ،** جامعة القديس يوسف، مجلة الآداب الشرقية، بيروت، ١٩٩٧م

٣. خليفة، حامد محمد، **يوسف بن تاشفين موحد المغرب وقائد المرابطين ومنقذ الأندلس من الصليبيين**، دار القلم، دمشق، ط١، ٢٠٠٣م

٤. عبد الرحيم، رائد، **صورة يوسف بن تاشفين في أدب الرسائل في عهدي الطوائف والمرابطين،** مجلة جامعة النجاح للأبحاث –ب العلوم الإنسانية، مج ٢١،ع ١.حزيران، ٢٠٠٧م.

٥. بهجت، منجد مصطفى" **واقعة الزلاقة كما صورها الشعر الأندلسي**"، مجلة آداب المستنصرية، ع٩، الجامعة المستنصرية، بغداد، ١٩٨٤م.

٦. ابن القصيرة: هو الوزير أبو بكر محمد بن سليمان الكلاعي نشأ في دولة المعتضد، وصيره سفيراً بينه وبين يوسف ابن تاشفين، ونكب مع المعتمد، له شعر ونثر، ت ٥٠٨هـ/١١١٣م.انظر، ابن خاقان، أبو نصر الفتح بن محمد

والمتوكل بن الأفطس[٧]. وارتأت هذه الدراسة التحقق من الحكم الذي أطلقه الباحث رائد عبد الرحيم في دراسته السابقة الذكر بأن يوسف بن تاشفين حظي بتمجيد الأدباء "فقالوا فيه وفي إنجازاته **أدبا كثيرا**؛ لفضله في إنقاذ المسلمين في الأندلس من أعدائهم وجور حكامهم[٨]؛ لذا كان لا بد أن تستجلي هذه الدراسة أبعاد هذا الحكم العام، ليتبين بعد البحث والاستقصاء في مصادر الأدب أن صورته في الأدب أقل بكثير مما حظي به في مصادر التاريخ، وإنما قصد الباحث بتعميمه ذاك الحكم على أدب الرسائل وفن المراسلات التي جمعها من مصادر التاريخ وتاريخ الأدب دون غيرها من فنون الأدب، وتحديدا الشعر. وكان لا بد من استقصاء الشعر الذي قيل في ابن تاشفين من مصادره الأولى كالأعمال الشعرية، وكتب الأدب، كالحلة السيراء وقلائد العقيان، وخريدة القصر، والذخيرة، بالإضافة إلى نفح الطيب رغم كونه متأخرا، وغيرها.

يوسف بن تاشفين إنساناً وقائداً

أجمعت المصادر التاريخية على أن ابن تاشفين موضوع الدراسة هو: يوسف بن تاشفين بن إبراهيم بن ترقون بن ورتانطق بن منصور بن أمية بن تليت الحميري الصنهاجي اللمتوني، المولود سنة ٤٠٠هـ/ ١٠٠٩م والمتوفى في مراكش سنة ٥٠٠هـ/١١٠٦م، وكنيته أبو يعقوب[٩]. وهو من البربر الملثمين•، وأشهر قبائل البربر هم جدالة ولمتونة؛ إذ كانت الرئاسة في

الإشبيلي (٥٢٨هـ/١١٣٣م)، **قلائد العقيان ومحاسن الأعيان**، حققه وعلق عليه: حسين خريوش، مكتبة المنار، الزرقاء، ط١، ١٩٩٨، ص٣٠٥-٣١٣،، ابن بسام، أبو الحسن علي بن بسام الشنتريني،(٥٤٢هـ/١١٤٧م) **الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة**، ٤ أجزاء، ٨مجلدات، تحقيق إحسان عباس، دار الثقافة، بيروت، لبنان، ١٩٧٧م، ق٢، م١، ص٢٣٩-٢٦٨، ابن الأبار، أبو عبدا محمد بن عبدا ،(٦٥٨هـ/١٢٥٩م) **الحلة السيراء**، تحقيق، حسين مؤنس، الشركة العربية للطباعة والنشر، ط١،القاهرة، ١٩٦٣م، ج٢، ص ١٨٦-١٨٧.

٧. الملك المتوكل عمر بن المظفر بن الأفطس، كان في بطليوس كالمعتمد في إشبيلية، له نظم ونثر، حاصره المرابطون وقتلوه سنة (٤٨٧هـ/١٠٩٤م).انظر: ابن بسام، **الذخيرة**، ق٢، م٢، ٦٤٦-٦٥٢، **ابن خاقان، قلائد العقيان**، ص١٢٠-١٢٣.

٨. عبدالرحيم، رائد، **صورة يوسف بن تاشفين في أدب الرسائل في عهدي الطوائف والمرابطين، ص٢٧**.

٩. ابن خلكان، شمس الدين أحمد بن محمد،(ت٦٨١ هـ/١٢٨٢م)، **وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان**،، تحقيق: إحسان عباس، دار صادر، بيروت،(د.ت)، ٨ مجلدات، مج ٧، ص١١٢، الفاسي، علي بن أبي زرع،(ت٧٢٦هـ/١٣٢٥م)، **الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس**، دار المنصور للطباعة، الرباط، ١٩٧٢م، ص١٣٦، ١٣٧. مجهول،(ت٧٧٩هـ/١٣٧٧م) **الحلل الموشية في ذكر الأخبار المراكشية**، تحقيق سهيل زكار، وعبدالقادر زمامة، دار الرشاد الحديثة، الدار البيضاء، ١٩٧٩م، ص٢٤، ابن عذاري، المراكشي، (ت٧١٢هـ/١٣١٢م)، **البيان المغرب من أخبار الأندلس والمغرب**، تحقيق: إحسان عباس، دار الثقافة، بيروت، ط١، ١٩٦٧م،ج٤ ، ص ٤٦.

• قيل عن لثام البربر أن طوله ١٢ متراً، يغطي بعض الفم لكي لا يخرج العيب منه وبعضه يغطي العين لكي لا ينظر إلى ما لا يليق وهو كفن عند الموت أيضا في الغربة. سموا بالملثمين لأن رجالهم كانوا يرتدون اللثام ليلاً نهارا على سبيل العادة التي توارثها الأبناء عن الآباء، وقد اختلف في سببها، هل هي اتقاء للحر والبرد ؟ أم لأن نساءهم قد تلثمن وصددن اللصوص في أثناء غياب رجال القبيلة؟ أم غير ذلك؟ ومن الأقوال الشعرية التي أثنت على لثام يوسف بن تاشفين تحديدا قول

لمتونة لبني ورتانطق الذين انحدر من صلبهم الزعيم الإسلامي المرابطي يوسف بن تاشفين.

وتورد المصادر أن يوسف بن تاشفين شخصية فذة ؛ إذ يعد الرجل العسكري الحربي السياسي الأول في تلك الحقبة، فقد ملك بلاد المغرب بزمن قياسي امتد من سنة ٤٥٣ هـ / ١٠٦١م وحتى ٤٧٥هـ/١٠٨٢م، ثم ضم لها الأندلس ما عدا دولة بني هود التي أبقاها، لأسباب سياسية، حداً فاصلا بينهم وبين العدو، وهدفه في ذلك رفع راية لا إله إلا ا (٤٨٧-٥١٢هـ/ ١٠٩٤-١١١٨م)[١٠]. وهو أول من لقّب بأمير المسلمين دون أمير المؤمنين تأدبا منه مع الخليفة العباسي المستظهر با [١١] بعد وقعة الزلاقة * بطلب من الفقهاء والعلماء، وسنفصل في ذلك لاحقا، اعترافا بفضله، وتورد أيضا أنه لم يكن يحتاج إلى استئذان الخليفة في ذلك لتفوقه عليه وإنما لتكون ولايته مستندة إلى الشرع [١٢] مما يعني أن الاحتكام إلى الدين هو أساس قيام حكم

الفقيه الكاتب ابن خلكان أبي محمد بن حامد في يوسف وفي بنيه (الرجز):

قوم لهم درك العلا من حميـــر	وإن انتموا صنهاجة فهم هـُـــم
لما حووا أحواز كل فضيلـــة	غلب الحياء عليهمُ فتلثّمـــــــوا

انظر: ابن خلدون، عبدالرحمن بن محمد الحضرمي، (ت٨٠٨هـ/١٤٠٥م) **العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر**، دار الفكر، ط١، بيروت، ١٩٨١م، ٧أجزاء، ج٦، ص ٢٠٦. مجهول، **الحلل الموشية**، ص ٧، ونلفت هنا أن الشطر الأول من البيت الأول وقد ورد عند الفاسي، ابن أبي زرع، **الأنيس المطرب**، ص١٣٧: ملكٌ له شرف العلا من حميرٍ، وانظر، ابن عذاري المراكشي، **البيان المغرب**،ج٤، ص٤٦.

١٠. ابن أبي زرع الفاسي، **الأنيس المطرب**، ص١٣٨ -١٤٣، مجهول، **الحلل الموشية**، ص ٢٤، ابن عذاري المراكشي، **البيان المغرب**، ج٤، ص ٢١-٢٤

١١. أبو العباس أحمد المستظهر با (ت ٥١٢هـ /١١١٨م) انظر: السيوطي، عبد الرحمن بن أبي بكر(ت ٩١١هـ/١٥٠٥م)، **تاريخ الخلفاء**، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، مطبعة المدني، ط٣، القاهرة، ١٩٦٤م، ص ٤٢٦.

* تعددت الروايات التي تحدد العلاقة بين ابن تاشفين والخلافة العباسية فأورد الناصري، صاحب الاستقصا كلام ابن خلدون بأنها تبدأ عام ٤٩١هـ/١٠٩٨م عندما أرسل وفدا مكونا من نجله القاضي أبي بكر وعبدا بن العربي إلى الخليفة أبي العباس احمد المستظهر با في بغداد، كي يستأذنه بخلع لقب الأمير على نفسه، وقد اعترف الخليفة وقتها بشرعية إمارة يوسف.انظر: الناصري، أبو العباس احمد الناصري(ت١٣١٥هـ / ١٨٩٧م) **الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى**، دار الكتاب، الدار البيضاء، ١٩٥٦م ج٢ ص ٥٨، ويضيف حسين مؤنس في" **نصوص سياسية عن فترة الانتقال من المرابطين إلى الموحدين**" أن الوفد عاد محملا برسائل أبي حامد الغزالي والطرطوشي يفتيانه في الحكم على ملوك الطوائف بوجوب الخلع، انظر مجلة المعهد المصري للدراسات الإسلامية في مدريد،، مج١، ع٣، ١٩٥٥م،ص١٠٠. وتقول رواية أخرى إن ابن تاشفين أرسل إلى الخليفة العباسي يطلب منه ان يسلطنه على ما تحت يده من البلاد، فبعث إليه بالخلع والأعلام ولقبه بأمير المسلمين ففرح بذلك وسر به فقهاء المغرب، معنى ذلك أن اللقب منح من قبل الخليفة العباسي وليس العكس، انظر حسين مؤنس، **سبع وثائق جديدة عن دولة المرابطين وأيامهم في الأندلس**،،مجلة المعهد المصري للدراسات الإسلامية في مدريد ج٢،ع١-٢، ١٩٥٤م، ص٦٣-٦٥.

١٢. **الناصري، الاستقصا**، ج٢، ص ٥٨، **ابن خلكان، وفيات الأعيان**، مج ٧، ص١٣٨، الفاسي، ابن أبي زرع، **الأنيس المطرب**، ص١٣٧. مجهول، **الحلل الموشية**، ص ٢٩، وذكر ابن عذاري المراكشي، صاحب **البيان** المغرب، ج٤، ص٢٧، أن ابن تاشفين هو من اختار هذا اللقب سنة ٤٦٦هـ/١٠٧٣م أي في عهد الخليفة العباسي القائم بامر ا (٤٦٧هـ / ١٠٧٥م)، **أمير المسلمين، يوسف بن تاشفين**، ص٧٧. وتورد دائرة المعارف الإسلامية أنه لقب كان المرابطون أول من اتخذه للتمييز بينه وبين لقب أمير المؤمنين دون أن تنسبه (الموسوعة) إلى ابن تاشفين بعينه، انظر: **دائرة المعارف الإسلامية**، مج٢، أحمد الشنتناوي، إبراهيم زكي خورشيد، عبد الحميد يونس، مطبعة الشعب،

المرابطين. وكان محبا للعلماء والفقهاء زاهدا في الدنيا حازما مطبقا لنظام الشورى، وكان خائفا لربه، كتوما لسره، مقبلا على الصلاة، يأكل من عمل يده، وكان يفضل الفقهاء ويعظّم العلماء، ويصرف الأمور، ويأخذ برأيهم، كان معظما لا يخلد إلى راحة ولا يسكن إلى دعة[١٣].

ويبين يوسف أشباخ أن ما يتمتع به من صفات الرأي الثاقب والشجاعة وبعد النظر هي من أخص صفات الزعامة، كما أن احتقاره لمظاهر الترف في الملبس والمسكن أكسبته محبة شعبه من جهة، ووقوت في نفوسهم عواطف التوقير والشرف من جهة ثانية[١٤]. وقد عده ابن خلدون من مشاهير البربر مشيرا إلى أن ابن تاشفين خير من يمثل البربر في الاهتمام بالعلم والجهاد وسد الثغور وبذل النفس في ذات ا وإنفاق الأموال في سبيل الخيرات ومخالطة أهل العلم ورفع مكانهم في مجالستهم...." [١٥].

بدأت انطلاقة يوسف بن تاشفين في توحيد بلاد المغرب وضمها للإسلام سنة (٤٥٣هـ/ ١٠٦١م)، بعد أن استعمله ابن عمه الأمير أبو بكر بن عمر[١٦] الذي تنحى[١٧] عن حكمها لانشغاله في أمور الصحراء [١٨]؛ وكان قد رأى منه الذكاء والنباهة في قيادة جيوش المرابطين، فحفزه لاستكمال فتح بلاد المغرب، وكان تسلمه للحكم سنة (٤٥٣هـ/١٠٦١م)[١٩].

القاهرة،ط٢، ١٩٦٩م، ج٢، ص٦٥٢.

١٣. ابن عذاري المراكشي، **البيان المغرب**، ج٤، ص ٤٦،مجهول، **الحلل الموشية**، ص ٢٩، ابن خلكان، **وفيات الأعيان**، مج ٧، ص١١٢، الفاسي، ابن أبي زرع، **الانيس المطرب**، ص ١٣٦.

وللأمير عبد ا بن بلقين أمير غرناطة نص يشهد به على صفات ابن تاشفين وخلقه عندما التقوه قبيل الزلاقة يقول فيه:"لقينا أمير المسلمين في طريقه إلى بطليوس ورأينا من إكرامه لنا وتحفيه بنا ما زادنا ذلك فيه رغبة لو استطعنا أن نمنحه لحومنا فضلا عن أمولنا"،"وظننا أن إقباله على الأندلس منة من ا عظمت لدينا للذي شاع من خيرهم وإقبالهم على طلب الآخرة وحكمهم بالحق" انظر: الأمير عبدا بن بلقين، **مذكرت الأمير عبدا ،** آخر ملوك بني زيري بغرناطة، المسمى بكتاب التبيان، تحقيق، إ.ليفي بروفنسال، دار المعارف بمصر،١٩٥٥م، ص١٠٤.

١٤. أشباخ، يوسف، **تاريخ الأندلس في عهد المرابطين والموحدين،** مطبعة لجنة التأليف والترجمة، القاهرة، ط٢، ١٩٥٨م، ص ٦٥-٦٦.

١٥. ابن خلدون، **العبر،** ج٦، ص ١٣٧.

١٦. الأمير أبو بكر بن عمر اللمتوني،أخذ الإمام عبدا بن ياسين له البيعة بعد وفاة أخيه يحيى بن عمرعلى سجلماسة سنة ٤٥٠هـ/١٠٥٨م وفي سنة ٤٦٠هـ/١٠٦٨م استقامت له الأمور وطاعت له الكثير من بلاد المغرب، عاد إلى الصحراء لإخماد الثورات بعد تسليم ابن تاشفين الحكم وتوفي في السودان سنة٤٦٨هـ/ ١٠٧٥م، انظر، ابن عذاري المراكشي، **البيان المغرب،**ص١٤-٢٦.

١٧. ذهبت بعض المصادر مسارب عدة في تفسير تنحي أبي بكر بن عمر عن الحكم فمنهم من يقول إن يوسف بن تاشفين تقصد أن يذهل ابن عمه أبا بكر بن عمر باستعراض القوة والمنعة والشدة والقيادة والقدرة على استمالة النفوس مما دفع بـأبي بكر إلى أن يقطع رجاءه من الملك، انظر: **ابن عذاري المراكشي، البيان المغرب،** ج٤، ص ١٩-٢٠، المراكشي، عبد الواحد،(٦٤٧هـ/١٢٤٩م) **المعجب في تلخيص أخبار المغرب،** ضبط وتصحيح محمد سعيد العريان ومحمد العربي، مطبعة الاستقامة، القاهرة، ط١، ١٩٤٩م**،** ص١٥٧.

١٨. مجهول، **الحلل الموشية،** ص ٢٥، ابن عذاري المراكشي، **البيان المغرب**،ج٤/ص ٢٠.

١٩. الحميري، محمد بن عبد المنعم السبتي،(٩٠٠هـ/١٤٩٤م) **الروض المعطار في خبر الأقطار**، تحقيق، إحسان عباس، مكتبة لبنان، بيروت، ط٢، ١٩٨٤م، ص ٥٤٠، الذهبي، شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان،(٧٤٨هـ/١٣٧٤م)

ويذكر أنه ابتنى مدينة مراكش، بحسب تخطيط ابن عمه أبي بكر عمر اللمتوني لها قبل أن يسلمه القيادة ويتوجه إلى الصحراء لإخماد الفتن والحروب؛ رغبة منه في أن تكون قاعدة لانطلاق الجيوش عام ٤٦٣هـ /١٠٧٠م . ويكشف صاحبا البيان المغرب، والمعجب بعض صفاته وسجاياه في أثناء بناء هذه المدينة التي كانت أرضها معبرا للصوص وقطاع الطرق حتى هجرها الناس؛ إذ أثبت تواضعه وحبه للعمل ، كنقله الحجارة لبناء المسجد والقلعة جنبا إلى جنب مع جنوده[٢٠].

وفي عام ٤٦٦هـ/ ١٠٧٣م افتتح مدينة مكناسة، وفي عام ٤٦٧هـ/ ١٠٧٤م افتتح منطقة فاس وما جاورها، وفي سنة ٤٦٨هـ/١٠٧٥م فتح تلمسان[٢١]. بذلك يكون ابن تاشفين قد ملك المغرب من بلاد العدوة من جزائر بني مزغنة[٢٢] إلى طنجة إلى آخر السوس الأقصى، إلى جبال الذهب من بلاد السودان [٢٣].

ظهوره في الأندلس ودوره في معركة الزلاّقة

تتعدد الروايات والأخبار التي نقلتها المصادر في سبب جواز ابن تاشفين إلى بلاد الأندلس، ونتج التعدد من الخلط في بعض الملابسات وفي توقيت الجواز، وفي حدوث بعض الأحداث منذ سقوط طليطلة بيد الأذفونش (الفونس السادس ملك قشتالة) عام ٤٧٨هـ/١٠٨٤م [٢٤]، وقد أدى ذلك إلى التداخل بين أكثر من رواية تتعلق بالجواز، فانتهى الأمر إلى عدم الدقة أحيانا، والتسرع في إطلاق الأحكام أحيانا أخرى ، وانعكس ذلك على لغة بعض المؤرخين كما نجد في رواية صاحب نفح الطيب التي سنوردها لاحقا، مما قاد إلى رسم صورة مشوهة عن ابن تاشفين، كأن يتهم بأن جوازه يصدر عن طمع ، ورغبة في التوسع، وغيرها من الأسباب. وقد أولت بعض الدراسات الحديثة* العناية بتفاصيل هذه الروايات والأخبار وفي ترجيحها وتغليب بعضها على

سير أعلام النبلاء، مؤسسة الرسالة، ط١، ١٩٨٤، ٢٥ جزءاً، ج١٩/ص٢٥٢،

٢٠. ابن عذاري المراكشي، **البيان المغرب،** ج٤، ص ١٩-٢٠، مجهول، **الحلل الموشية،** ص٢٥، عبد الواحد المراكشي، **المعجب،** ص١٥٧، ذكر مجهول، مراكشي صاحب الاستبصار أن تأسيسها كان في سنة ٤٥٩هـ/١٠٦٧م، انظر:مجهول، مراكشي، ق٦هـ، **الاستبصار في عجائب الأمصار،** تحقيق، سعد زغلول عبد الحميد، دار الشؤون الثقافية، بغداد،(د.ت)، ص٢٠٨.

٢١. **البيان المغرب،** ج٤، ص٢٦-٢٩،اختلفت سنوات الفتح في الأنيس المطرب بأقل من خمس إلى ست سنوات عن البيان والحلل الموشية، انظر، الفاسي، ابن أبي زرع، **الأنيس المطرب،** ص١٤٠-١٤١.

٢٢. جزائر بني مزغنة: وتعرف بجزائر بني مزغنّاي، وهي مدينة على ضفة البحر من إفريقية والمغرب، وكانت السفن تقصد ميناءها من إفريقية والأندلس.انظر ياقوت، شهاب الدين أبو عبد ا ياقوت بن عبدا (ت ٦٢٦هـ/١٢٢٨م)، **معجم البلدان،** دار إحياء التراث العربي، بيروت، ١٩٧٩، ج٢، ص١٣٢.

٢٣. انظر، ابن القاضي، أحمد بن محمد المكناسي، **جذوة الاقتباس في ذكر من حل بمدينة فاس،** دار المنصور للطباعة،الرباط ١٩٧٤م،ج ٢،ص ٢٤٥. الحميري، **الروض المعطار،** ص ٢٩١. الذهبي، **سير أعلام النبلاء،** ج ٢٥٢/١٩.

٢٤. عبدا ، محيي الدين، **يوسف بن تاشفين والأندلس،** ص ٤٢.

* انظر البحث ص٣

بعض بالاستناد إلى أهم المصادر التاريخية التي تناولت القرن الخامس من مثل الحلل الموشية ، والبيان المغرب، ومذكرات الأمير عبدا بن بلقين بن باديس، وغيرها، وما يهم هذه الدراسة هو مدى مصداقية ابن تاشفين في مواقفه التي تعكس صفاته القيادية، ودحض القول برغبته في التوسع بسبب مطامع شخصية له في الأندلس، ومدى انعكاس تلك الصفات في الشعر.

وقبل أن نورد بعض هذه الجوانب بحسب تلك الروايات ، لا بد من الإشارة إلى حال ملوك الطوائف الذين تشتتوا دويلات، فضاعت كلمة العرب والدين بينهم، وطمع بهم القوط الغربيون وصاروا يؤدون الضريبة إلى الأذفونش** وعلى رأسهم المعتمد بن عباد [٢٥].وكان من نتائج التشتت والفرقة سقوط طليطلة سنة ٤٧٨هـ /١٠٨٥م بعد حصار الأذفونش لها سبع سنين [٢٦]، وقد استباح الفرنج أموال أهلها وأرواحهم، وكان لهذا السقوط أثر في نفوس المسلمين والأذفونش ؛ إذ دفع بالمسلمين إلى إطلاق الاستغاثات** لاسترداد كرامتهم والانتقام من الفرنج، وحفز الفرنج على استغلال هذا النصر في المزيد من المكاسب؛ مما كان سببا قويا في استدعاء ابن تاشفين ليخاص الأندلس من هذا التردي والضعف [٢٧].

يرى صاحب الحلل الموشية أن إرهاصات سبقت حادثة المعتمد التي استدعته للاستنجاد بابن تاشفين ، وذلك سنة ٤٧٤هـ/١٠٨١م ؛ إذ وفد على ابن تاشفين جماعة من أهل الأندلس، شكوا إليه ما حل بهم من أعدائهم فوعدهم بإمدادهم وإعانتهم، وصرفهم إلى أوطانهم[٢٨]، وكان ممن كتب في ذلك المتوكل على ا ابن الأفطس (ت٤٨٧هـ/ ١٠٩٤م) يستصرخه حين انقض العدو على بلاده.[٢٩] وأبو بكر بن القصيرة سفير المعتمد إلى ابن تاشفين آنذاك، وقد ارتحل إليه وهو

** هو أذفونش بن فرذلند بن غرسيه بن شانجة ملك الفرنج، كان أشجع أخوته، ورد في المصادر بلفظ ألفونس والفنش، توفي في طليطلة سنة ٥٠٢هـ ١١٠٨م انظر: ابن عذاري المراكشي، البيان المغرب، ج٤،ص٥٠، ابن خاقان، قلائد العقيان، ج١، ص٧٢، الناصري، **الاستقصا**، ج٢، ص٣٣،

٢٥. المعتمد بن عباد، محمد بن إسماعيل بن عباد بن محمد اللخمي، المعتمد على ا ، ولد بباجة سنة(٤٣١هـ/١٠٣٩م) وولي إشبيلية سنة(٤٦١هـ/١٠٦٨م) وخلع سنة(٤٨٤هـ/١٠٩١م)،كان شاعرا وقائدا محنكا، ويعد بلاطه من أكثر المجالس احتفاء بالشعر والشعراء، انظر، ابن بسام، الذخيرة،ق٢،م١،ص١٣-١٨، وانظر، ابن خاقان، قلائد العقيان، ص٥١-١٠٩،وابن الأبار، الحلة السيراء، ص٥٢.

٢٦. الحميري، **الروض المعطار**، ص٣٩٣- ٣٩٤، مجهول، **الحلل الموشية**، ص ٣٨.

** أورد محمد حتاملة مباحث عدة في كتابه تحت مصطلح الاستغاثات منذ سنة ٤٥٦هـ/١٠٦٤م، انظر، **الأندلس التاريخ والحضارة والمحنة**، مطابع الدستور، عمان، ٢٠٠٠م، ص٩٢٤-٩٧٤.

٢٧. بعث الأذفونش رسوله إلى ابن عباد، يشتطّ في طلب الضريبة، ويطلب جميع الحصون المنيعة، ومما تذكر الروايات أن الرسول تجاوز الحدود في كلامه وأغلظ القول للمعتمد، فضربه ابن عباد بالمحبرة، وأمر به فصلب، ولما بلغ الأذفونش، ألفونسو السادس، ما فعله المعتمد، أقسم ليغزونه بإشبيلية ويحاصرنه في قصره، وعاد إلى طليطلة ليجمع العدد والعدة استعداداً للمعركة. انظر: **مجهول، الحلل الموشية**، ص٤١-٤٢،، ابن الخطيب، لسان الدين ابن الخطيب السلماني(ت٧١٣هـ/١٣١٣م)، تاريخ إسبانيا الإسلامية، **أعمال الأعلام** فيمن بويع قبل الاحتلام من ملوك الإسلام، تحقيق، إ. ليفي بروفنسال، دار الثقافة، بيروت، ١٩٥٦م، ص٢٤٤-٢٤٥.

٢٨. مجهول، **الحلل الموشية**، ص٣٣. ابن بلقين، **مذكرات الأمير عبدا** ، ص١٧.

٢٩. مجهول، **الحلل الموشية**، ص٣٤- ٣٥

في سبتة(٣٠)

ويشير الباحث رائد عبد الرحيم إلى وجود كم من الخطابات التي كانت ترد إلى ابن تاشفين من أهل الأندلس الخاصة منهم والعامة، تستنجد به وتصف حال بلاد الأندلس(٣١)، وقد تتبعت هذه الدراسة عددا من تلك المراسلات في الوثائق التي جمعها حسين مؤنس،ومحمود علي مكي، ومحمد ماهر حمدان، ومذكرات الأمير عبدا ، وتاريخ الأندلس لابن الكردبوس، وغيرها. وتبين أنه تشكلت لدى ابن تاشفين صورة جلية عن حال الأندلس قبل الحدث الأبرز الذي وقع للمعتمد، فأدرك، في ضوئه، أنه لا بد من استجماع القوى لمواجهة حشد الفرنج، واتجه تفكيره للاستعانة بالمرابطين، وبيوسف (الصحراوي كما كان ينعته). وتفصح بعض المصادر عن شعور المعتمد تجاه دخول ابن تاشفين بلاد الأندلس بأنه سطو واستيلاء(٣٢)، وقد حذره أبناؤه وبعض ملوك الطوائف، لكنّه رد بقولته المشهورة: "رعي الجمال خير من رعي الخنازير" ويتضح ذلك في الرسالة البليغة التي وجهها المعتمد باسمه واسم ملوك الأندلس إلى ابن تاشفين لنجدة المسلمين(٣٣)، ومن ثم بعث بوفد من القضاة وعلى رأسهم قاضي قرطبة أبو بكر عبيد ا بن محمد (٣٤)ومعهم وزيره أبو بكر بن زيدون(٣٥) إلى ابن تاشفين ليرغبوه في الجهاد، وقد أظهر الأخير استعداداً لتلبية النداء (٣٦)، وجاز جوازه الأول إلى الجزيرة الخضراء مع قواته سنة

٣٠. النويري، شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب،(ت٧٣٣هـ/١٣٣٢م)،**نهاية الأرب في فنون الأدب**، تحقيق: أحمد كمال زكي، مراجعة محمد زيادة، الهيئة المصرية للكتاب، ١٩٨٠م، ٣٣ جزءاً، ج٢٣، ص ٤٥٥. قدم لهذا الرأي بقوله "هذا ما نقله أهل التاريخ "، وكان يحيل على المؤرخ المشرقي ابن الأثير وكان من الأولى اعتماد مصادر مغربية وأندلسية، انظر ابن الأثير، محمد بن محمد بن عبدالكريم الشيباني (ت٦٣٠هـ/١٢٣٢م)، **الكامل في التاريخ**، مراجعة، محمد الدقّاق، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط١، ١٩٨٧م، ١٠ أجزاء، ج٨، ص١٤٢.

٣١. عبد الرحيم، رائد، **صورة الأمير يوسف بن تاشفين في أدب الرسائل في عهدي الطوائف والمرابطين**، ص ٣٩

٣٢. مجهول، **الحلل الموشية**، ص٤٧-٤٨.

٣٣. ابن خلكان، **وفيات الأعيان**، ١١٢/٦-١١٣،**الحلل الموشية**، ص٢٦. محمد ماهر حمادة، **الوثائق السياسية والإدارية في الأندلس وشمال إفريقية(٦٤-٨٩٧ هـ)**، دراسة ونصوص، مؤسسة الرسالة، بيروت،ط٢، ص ٨٦، وقد أورد ابن عذاري المراكشي، صاحب **البيان المغرب** رسالة استنجاد ثانية بعث بها المعتمد لابن تاشفين يستحثه بلغة واضحة ومباشرة مع تقديم مغريات الدعم والعون المتاحة من قبلهم كقوله: " إن كنت مؤثرا للجهاد، فهذا أوانه، فقد خرج الأذفونش إلى البلاد، فأسرع في العبور إليه ونحن معاشر أهل الجزيرة بين يديك" ج١١٤/٤-١١٥.

٣٤. ابن الكردبوس، **تاريخ الأندلس لابن الكردبوس**، تحقيق أحمد مختار العبادي، مطبعة معهد الدراسات الإسلامية بمدريد ١٩٧١م، ص٩٠. أبو بكر عبيدا بن محمد بن أدهم، قاضي الجماعة بقرطبة، استقضاه ابن عباد سنة ٤٦٨هـ/١٠٧٥م، وكان من أهل الصرامة في تنسيب الحق، شوور في الأحكام بالمظالم ٤٨٦هـ/١٠٩٣م، انظر، ابن بشكوال، خلف بن عبدالملك بن مسعود (ت ٥٧٨هـ/١١٨٢م)، **كتاب الصلة**، تحقيق عزت العطار الحسيني، مكتبة الخانجي، القاهرة، ١٩٦٤م ، ص٢٩٣.

٣٥. أبو بكر ابن زيدون، ابن الشاعر المشهور أبي الوليد بن زيدون(٤٨٤هـ/١٠٩٤م)، استخدمه المعتمد بعد وفاة أبيه. انظر ابن الأبار، أبو عبدا محمد بن عبدا ،(٦٥٨هـ/١٢٥٩م) **إعتاب الكتاب**، تحقيق صالح الأشتر، دمشق، ١٩٦١م، ص١٣.

٣٦. الحميري، **الروض المعطار**، ص ٢٢٨، وتستخدم بعض الدراسات عبارة أن ابن تاشفين تباطأ في تلبية النداء، وتحاول تسويغ ذلك بأنه لم يكن استكمل أهبته أو لأن الحصون المطلوبة لم تسلم إليه، انظر، عبدا ، محيي الدين،

٤٧٩هـ/١٠٨٦م [٣٧].

وكان ملوك الأندلس يفيئون إلى ظل ابن تاشفين خشية استيلائه على ملكهم، فلما رأوا ما دلهم على عبوره إليهم وعلموا ذلك، راسل بعضهم بعضا يقلّبون آراءهم في أمره، وكان مفزعهم في ذلك إلى المعتمد بن عباد لأنه أشجع القوم وأكبرهم مملكة [٣٨].

وتكاد تتفق روايتا ابن خلكان [٣٩] والحميري [٤٠]، مع صاحب النفح * بأن سبب الجواز هو ما تاقت إليه نفسه (رغبة في التوسع)، ولربما يعود سبب ذلك التوافق إلى اعتمادهم على المراكشي صاحب المعجب [٤١] الذي كان متعاطفا مع المعتمد، وكان يظهر ميلا للموحدين [٤٢]. ومما يلفت الانتباه في تعدد روايات الجواز وبواعثه أنها تناقض بعضها بعضا، ومع ذلك نجد بعض الدارسين المحدثين يوردها جميعها، متجاوزا تناقضاتها، جملة وتفصيلا من غير ترجيح أو محاكمة [٤٣]

لكن الذي يقرأ شخصية يوسف بن تاشفين في ضوء المصادرحسبما أوردنا سابقا، يستبعد أن يكون هدفه من الجواز الطمع، وهذا ما تورده بعض المراسلات بينه وبين المعتمد [٤٤]. أضف إلى

يوسف بن تاشفين والأندلس،(٤٧٩-٥٠٠)، ص٣٣.

٣٧. انظر، مجهول، **الحلل الموشية**، ص٣٥، ٤٥، ٦٧، ابن عذاري المراكشي، **البيان المغرب**، ص ج٤، ١٣١، عبد الواحد المراكشي، **المعجب**، ص ١٩٠، **الفاسي، ابن أبي زرع، الأنيس المطرب**، ص ١٤٤، ابن الخطيب، **أعمال الأعلام**، ص،٢٤٥،٢٤٧.

٣٨. ابن ع\اري المراكشي، **البيان المغرب**،ج٤، ص١١٢-١١٣، ابن خلكان، **وفيات الأعيان**، ج٨، ص١١٤،

٣٩. ابن خلكان، **وفيات الأعيان**، ١١٣/٧-١١٤.

٤٠. الحميري، **الروض المعطار**، ص٢٩١.

* رغم تفاوت الآراء التي أوردتها المصادر التاريخية والأدبية إلا أنه لوحظ أن خطاب المقري صاحب النفح- متأخر- كان من أكثر أنماط الخطاب حدية في العبارة وتعسفا في الحكم: " لما ملك يوسف بن تاشفين اللمتوني المغرب، وبنى مدينتي مراكش وتلمسان الجديدتين، وأطاعته البربر مع شكيمتها الشديدة، وتمهدت له الأقطار الطويلة المديدة، **تاقت نفسه إلى العبور** لجزيرة الأندلس، فهم بذلك، وأخذ في إنشاء المراكب والسفن ليعبر فيها، فلما علم بذلك ملوك الأندلس كرهوا إلمامه بجزيرتهم، وأعدوا له العدة والعدد وصعبت عليهم مدافعته وكرهوا **أن يكونوا بين عدوين: الفرنج من شمالهم والمسلمين*** من جنوبهم. وكانت الفرنج تشتد بوطأتها عليهم، وتغير وتنهب، وربما يقع بينهم صلح على شيء معلوم كل سنة يأخذونه من المسلمين، والفرنج ترهب ملك المغرب يوسف بن تاشفين إذ كان له اسم كبير، وصيت عظيم لنفاذ أمره وسرعة تملكه البلاد وانتقال الأمر إليه في أسرع وقت"،انظرالمقّري،أحمدبن محمد التلمساني، (ت: ١٠٤١هـ/١٦٣١م) **نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب**،تحقيق، إحسان عباس، دار صادر، بيروت، ١٩٦٨م، ج٤، ص ٣٥٥.

٤١. لعبد الواحد المراكشي صاحب المعجب نص يبين أن ابن تاشفين كان طامعا في بلاد الأندلس:" بعد الزلاقة رجع إلى مراكش وفي نفسه من أمر الجزيرة " ويقول على لسان ابن تاشفين:" كنت أظن أني قد ملكت شيئا فلما رأيت تلك البلاد وصغرت في عيني مملكتي فكيف الحيلة في تحصيلها؟"ويبدو أن هذا النص تسبب في إثارة الضغينة على ابن تاشفين ممن جاؤوا بعده من المؤرخين والمستشرقين أمثال دوزي، انظر: **عبدالواحد المراكشي، المعجب**، ص ١٩٩.

٤٢. دعا ابن الأبار، صاحب **الحلة السيراء** إلى التحفظ في قراءة كلامه، انظر، ج٢،ص٦٦.

٤٣. عنان، محمد عبدا ، **دول الطوائف**، منذ نشاتها حتى قيام الفتح المرابطي، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر،ط١، القاهرة، ١٩٦٠م، ص٣٢٧،

٤٤. أورد الأمير عبدا في مذكراته نص رسالة ابن تاشفين التي يبين فيها موقفه من الأندلس بقوله:"أنا رجل مغربي وليس

ذلك ما أوردته المصادر من أسباب الجواز المتعلقة برسالة الأذفونش المستفزة لابن تاشفين يلوح فيها بقوته، ويبين ضعف ملوك الطوائف، ويطالبه بالخروج إليه لقتاله، ويكتفي ابن تاشفين بكتابة الرد على ظهر الرسالة زيادة في تحقيره: أن الجواب ما تراه لا ما تسمعه، وأردف ببيت من شعر المتنبي الذي سيخضعه بالقتال لا بالملاينة (الطويل) :

ولا كتب إلا المشرفيةُ و(القنا) ولا رسلٌ إلا الخميس العرمرم[٤٥]

ومما لا شك فيه أن وزن الفقهاء عظيم وأثره كبير في الواقع السياسي في تلك الحقبة [٤٦] كما أن دورهم كان واضحا في استدعاء ابن تاشفين، فقد رابهم وضع الأندلس وملوكها الذين يصرون على التنعم واللهو، فأجمعوا رأيهم على إجازة يوسف بن تاشفين ، وعندما ازداد شعور أهل الأندلس بالخطر الإفرنجي، تحرك المعتمد بن عباد تحت هذا الضغط الشعبي ليستنجد بيوسف[٤٧]، ولكي يحافظ على ملكه من براثن الفرنج، وتتقدمه قصيدة مطلعها (الوافر):

أيظلمني الزمان وأنت فيـ ـ ـ ـه وتأكلني الكلاب وأنـ ـ ـ ـ ـتَ ليـ ـثُ

ويروى من حياضك كل صـ ـاد وأعطشُ في حماك وأنتَ غـ ـيث[٤٨]

ولم يتوقف المعتمد عن الاستمرار في مراسلة ابن تاشفين يحفزه للجواز موظفا القيم الدينية المتعلقة بفضل الجهاد ونشر الإسلام ومحاربة العدو، وبيان تشتت كلمة ملوك الطوائف موظفا الشعر الذي يؤكد فيه حتمية النصر، كتلك الأبيات التي أرسلها له بعد أن توثق من منجمه أبي بكر الخولاني [٤٩] من أن النصر حليفهم وأن الطالع هو أوفق طالع (مجزوء الكامل):

غزو عليك مبارك في طيه الفتح القريـ ـ ـب

سيفـ ـ ـك إنـ ـ ـه سخط على دين الصليـ ـب

لابد من يوم يـ ـ ـك ن له أخ يوم القليـ ـ ـ ـب [٥٠]

قدمني أخذ مال ولا بلاد وليس غرضي أكثر من تخليصها" انظر:الأمير عبدا ، بن بلقين بن باديس بن حبوس(٤٦٩هـ/١٠٧٧م)، **مذكرات الأمير عبدا ، آخر ملوك بني زيري بغرناطة(٤٦٩-٤٨٣)، المسماة بكتاب التبيان،** تحقيق: إ. ليفي بروفنسال، دار المعارف بمصر، ١٩٥٥م، ص١٦٥.

٤٥. مجهول، **الحلل الموشية،** ص ٤٣، وردت في ديوان المتنبي كلمة (عنده) بدل كلمة القنا، انظر: **العرف الطيب في شرح ديوان أبي الطيب المتنبي،** تحقيق: ناصيف اليازجي، دار القلم، بيروت، د.ت، ص٣٠٩ .

٤٦. وصل الأمر بملوك الطوائف استمالة القضاة لاستصدار فتاوى خاصة كما حصل مع القاضي ابن سهل الذي رفض عطية الأمير تميم صاحب مالقة الذي رغب في استمالته لاستصدار فتوى بضرورة القيام على أخيه عبدا بن بلقين، انظر **مذكرات الأمير عبدا ،** ص١١٦-١١٩.

٤٧. عبد الواحد المراكشي، **المعجب،** ص١٩، ابن الأبار، **الحلة السيراء،** ٢٨٦/٢، **ابن الخطيب، أعمال الأعلام،** ص٢٤٦.

٤٨. الناصري، **الاستقصا،** ٣٩/٢ ومابعدها. **لم ترد هذه الأبيات في ديوان المعتمد بن عباد.**

٤٩. أورد مجهول، صاحب الحلل الموشية هذه الرواية ولم يذكر اسم المنجم،ص ٥٨، ولم نعثر له على ترجمة باستثناء ما ورد في ديوان المعتمد،، انظر: ابن عباد، المعتمد محمد بن عباد بن إسماعيل اللخمي،(٤٨٨هـ/١٠٩٥م) **ديوان المعتمد بن عباد،** جمع وتحقيق، رضا الحبيب السويسي، الدار التونسية للنشر، ١٩٧٥م، ص٩١.

٥٠. ابن عباد، **ديوان المعتمد بن عباد،** ص ٥٣، مجهول، **الحلل الموشية،** ص ٥٨

ويورد المعتمد في ديوانه أنه أرسل هذه الأبيات من غير أن يخبره من أمر المنجم لنفور ابن تاشفين من الاستدلال بالنجوم[٥١]، وإن دل هذا على شيء فإنما يدل على شخصية ابن تاشفين الواقعية والعقلانية.

أما قضية عبور المعتمد إلى المغرب ليستنجد بيوسف فقد كانت مثار عواطف الشعراء وأملهم المنشود، فألقوا بين يدي المعتمد الأشعار أسبغوا عليه فيها صفات المنعة والشجاعة والسداد، وتجلى حضور ابن تاشفين بصورة رمزية كما ورد عند عبد الله بن عبد العزيز البكري[٥٢] في قصيدة قالها يمدح المعتمد ويصف ابن تاشفين بالزلال والشهد من غير التعرض لصفاته التي اعتاد الشعراء تمجيدها في الممدوحين كالكرم والإباء وغيرها: (الطويل) :

يهون علينا مركب الفلـك أن يرى محبي العلا لما نبا مركب الجـــــد
فجزتَ أُجاج البحر تبغي زلالـه وذقتَ جنى الأهوال تبغي جنى الشهد[٥٣]

اتفق ابن تاشفين مع المعتمد على مكان يدعى الزلاّقة [٥٤]، وتضافرت جموع المسلمين من ملوك الطوائف وجيوش ابن تاشفين على تلك الأرض ضد الفرنج، وتم النصر لجيوش الإسلام في ١٢ رجب ٤٧٩هـ /١٠٨٦م.، ولم يأل الشعراء جهدا في تمجيد النصر ومدح المعتمد خاصة مع الاكتفاء بالإشارة إلى ابن تاشفين، كما سيرد لاحقا.

عاد ابن تاشفين بعد المعركة إلى مراكش دون المكوث للاستراحة من مجهود الحرب، وقد اختلفت الروايات في سبب عودته المباشر*، ولم يجمع من الغنائم شيئا، ليؤكد أن قدومه للأندلس لم يكن إلا للجهاد، وليس طامعاً في الأندلس كما ذكرت بعض الروايات. علما بأن المعتمد كان

٥١. مجهول، **الحلل الموشية**، ص ٥٨.

٥٢. عبد الله بن عبدالعزيز البكري،(ت٤٨٧هـ/١٠٩٤م)، يكنى أبا عبدالله، شاعر أندلسي لبي، ولي ولْبة وشلطيش وما بينهما من الثغر الغربي، اتصل بالمعتصم بن صمادح صاحب المرية، وخرج سفيراً إلى باديس بن حبوس بغرناطة. انظر ترجمته في ابن خاقان، **قلائد العقيان**، ص٦١٥-٦٢٠، ابن الأبار، **الحلة السيراء**، ج٢، ص ١٨٠-١٨٧.

٥٣. ابن الأبار، **الحلة السيراء**، ج٢، ص ١٨٦-١٨٧. الفاسي، ابن أبي زرع، **الأنيس المطرب**، ص ١٤٤.

٥٤. الزلاّقة: بطحاء الزلاقة من أقليم بطليوس من غرب الأندلس، الحميري، **الروض المعطار**،ص٢٨٧، ابن عذاري المراكشي، **البيان المغرب**،ج٤،ص ١٣٠، وقال ياقوت هي أرض بالأندلس قرب قرطبة، انظر، الحموي، **معجم البلدان**، ج١، ص١٤٦.

* ثمة روايات تحيل سبب عودته مباشرة بعد الزلاقة إلى وفاة ابنه الأكبر أبي بكر في أثناء عبوره للأندلس، ولو لم يكن جوازه الذي بدأه بنية الجهاد لكان أولى أن يقطعة قافلا إلى مراكش بسبب هذا الحدث الجلل، إلا أنه احتسبه لوجه الله .انظر: مجهول، **الحلل الموشية**، ص ٦٦، الفاسي، ابن أبي زرع، **الأنيس المطرب**، ص١٥٢، ابن الأبار، **الحلة السيراء**، ١٠٠/٢، وترى الدراسة أن أشباخ أخطأ في تقديره لسبب العودة الذي يعود برأيه إلى نفور ابن تاشفين من ملوك الطوائف واستيائه منهم لما أحس بسوء نواياهم، انظر:**أشباخ**، ص٤٨١،علما بأن إحساسه بسوء نوايا ملوك الطوائف كان قد خالجه قبيل الجواز الثاني(٤٨١هـ/١٠٨٨م)، نتيجة مواقف بعينها كالتآمر والتحالف مع الأذفونش كل على حدة والاقتتال في ما بينهم، كل ذلك كشف له سوء النوايا بعد تحقق النصر في الزلاقة وليس على إثرها مباشرة.

أشار عليه بالتوجه إلى إشبيلية ليستريح فيها من أجواء المعركة فأبى وقال: "إنما جئت ناويا جهاد العدو، فحيثما كان العدو توجهت وجهه"(٥٥). ويرى بروفنسال من خلال هذه المقولة أنه قدم درسا بليغا في الحزم والعزيمة (٥٦)

ذكرنا سابقا أن المتتبع للشعر الذي قيل في الزلاقة لا يكاد يجد قصائد مستقلة في مدح ابن تاشفين، وإنما تجلّت صورة بطولته مقترنة بصورة المعتمد في معظم ما وصل إلينا من قصائد، يسلطون الضوء فيها على قدرة ابن تاشفين على استغلال طاقات المسلمين وتوجيهها الوجهة الصحيحة، يقول أبو طالب عبد الجبار (٥٧) من أرجوزة طويلة في التاريخ، يبين في مقطوعة منها فعال ابن تاشفين ومنجزاته العكسرية في سرعة مناولة العدو (الرجز) :

فإذا أراد ا نصر الديـــــن استصرخ الناس ابن تاشَفيـــن
فجاءهم كالصبح في إثر غســق مستدركا لما تبقى من رمـــــقْ
وافى أبو يعقوب كالعقـــــاب فجرد السيف من القـــــراب

ثم يصف بأسلوب السرد التاريخي يوسف وكيف كانت فعاله تنير الطريق للأمة، فوجبت له الطاعة:

وواصل السير إلى الزلاقـــة وساقه ليومها ما ساقــــــــه
در مثلها من وقعـــــــــة قامت بنصر الدين يوم الجمعـــة
وثل للشرك هناك عرشـــــه لم يغن عنه يومه أذفنشــــــه
فوجب الخلع لذي الخلاعـــة وصرحوا ليوسف بالطاعــــة
واتصل الأمر على نظـــــام وامتد ظل ا للإســـــــلام
وانصرفت على العدو الكـــرة ورجع الجمع كأولي مـــــرة
فتلك خيـــل ا في العـــدو تعيث في الرواح والغـــدو
ثم ولى علي بـــــن يوسـف مهتديا حـــكم أبيــه يقتـفي (٥٨)

وعلى الرغم من القيمة الفنية المتدنية لهذه الأبيات المنظومة على بحر الرجز، وهو من البحور الخفيفة السهلة ويطلق عليه (حمار الشعراء) لما له من سهولة في التركيب والبناء والصياغة، وما لجوء الشعراء إلى فن الأراجيز إلا من أجل الإسهام في التوثيق وشرح العلوم بصورة تعين على حفظ تلك الوقائع؛ إلا أنها تظل دليلاً تاريخيا على إشادة الشعراء بفضل يوسف

---

٥٥. عبد الواحد المراكشي، **المعجب**، ص ١٩٢، الحميري، **الروض المعطار**، ص٢٨٩.

٥٦. بروفنسال،إ.ليفي، **أدب الأندلس وتاريخها**، ترجمة، محمد عبدالهادي شعيرة،عبدالحميد العبادي بك، المطبعة الأميرية، القاهرة، ١٩٥١م، ص١٦، **يوسف بن تاشفين موحد المغرب وقائد المراطين ومنقذ الأندلس من الصليبيين**، ص٢٢٢-٢٢٣.

٥٧. كنيته أبو طالب، من أهل جزيرة شُقَر، كان يعرف بالمتنبي، أبرع أهل وقته أدبا، وأعجبهم مذهبا، وقد تجاوز العام ٥٣٧هـ/ ١١٤٢م، ابن بسام، الذخيرة، ق١، م٢، ص ٩١٦ .

٥٨. ابن بسام، **الذخيرة**، ق١، ج٢، ص٩٤٤.

وشاهدا على دوره البطولي في تلك المعركة*

عاد يوسف بن تاشفين ثانية سنة ٤٨١هـ /١٠٨٨م برسم الجهاد أيضا بعد أن وفد عليه في مراكش عدد من وجوه الأندلس من أهل بلنسية وغيرها، شكوا إليه ما حل بهم من ملوك الروم، فنازل حصن لييط [(٥٩)] من كورة تدمير، وتعذر فتحه لأن عبد الرحمن بن رشيق صاحب مرسية قد خانهم وحمى الأذفونش داخل الحصن[(٦٠)]. ويبدو أن ما نقل له وهو في حصن لييط في أثناء الجواز الثاني عن ملوك الطوائف ، وتخلفهم عن معاونته وقتها أوغر صدره فكان دافعا لحمله عليهم ومنازلتهم جميعا وانتهى الأمر إلى أن دانت له كل الطوائف باستثناء ولاية ابن هود التي تركها لحكمة* حيث موقعها المهم على الثغور[(٦١)].

تمت منازلة الطوائف في الجواز الثالث سنة ٤٨٣هـ/١٠٩٠م الذي جاء برسم الجهاد أيضاً عندما كثرت السعايات والشكاوات ضد ملوك الطوائف من قبل الفقهاء والشعراء. وتذكر معظم المصادر الأندلسية والمغربية والمشرقية أنّه شرع في خلع ملوك الطوائف، وتولية قواده على كل منطقة [(٦٢)]، وقد استصدر فتوى من قاضي غرناطة [(٦٣)] وقاضي مالقة [(٦٤)]، تنص على أن ملوك

* بين الزجال عبد الجبار النظام السياسي الذي يعتمده ابن تاشفين في حكمه وهو الاحتكام إلى القوة بالسيف في مناجزة العدو، وأورد تفاصيل تتعلّق بمعركة الزلاقة كالاسم الذي أطلق عليها، واليوم الذي وقعت فيه، واهتم بصفات القائد ابن تاشفين في سرعة تلبية النداء دون إبطاء، وهذا يتفق وعددا من الروايات التاريخية التي رجحناها على روايات ألمحت إلى طمعه في بلاد الأندلس ورغبته في التوسع. انظر البحث ص٧-٩،وانتقل في بيت واحد إلى حقبة زمنية لاحقة تتعلق بخلع ملوك الطوائف مستخدماً تعبير الخلع نفسه كالذي استخدم في كتب التاريخ، وبين منهجه السياسي الذي اتخذه للحكم في بلاد الأندلس الذي يقوم على الحكم الديني. بذلك يكون ابن عبد الجبار لخّص سيرة الفتح لبلاد الأندلس كاملة، ثم لا يفتأ يشير إلى عدم خلو ذلك العهد من المناجزات مع العدو الفرنجي الذي يظل يحشد جيشه ويغير على ثغور المسلمين. ويختم الأرجوزة ببيان انتقال الولاية إلى ابنه علي، وبين النهج الذي انتهجه الابن فلايحيد عن نهج أبيه. من هنا نستدل أن الأرجوزة أضحت بمثابة وثيقة تاريخية مهمة.

٥٩. حصن لييط أو قلعة لييط:حصن حصين على رأس جبل شاهق من كورة تدمير التي تتصل بأحواز كورة جيان شرقي قرطبة.انظر، الحموي، **معجم البلدان**، ج٢، ص ١٩. مجهول، **الحلل الموشية**، ص٦٧.

٦٠. مجهول، **الحلل الموشية**، ٦٧، الفاسي، ابن أبي زرع، **الأنيس المطرب**، ص ١٥٢، ويورد **ابن خلدون** في تاريخه **العبر**، ج٢٤٩/٦، أنه تم سنة ٤٨٦ هـ -١٠٩٣م بسبب تثاقل أمراء الطوائف على لقائه باستثناء المعتمد، وهو في ذلك يخالف الروايات الواردة في الحلل والأنيس المطرب وغيرها. ويورد **أشباخ**، ص ٥٦، أنه ما كان ليوسف أن يعود للأندلس رغم علمه بضرورة مواصلة الجهاد من غير تغطية قانونية؛ فهو مجرد ضيف ولا يستطيع طلب المؤن وتأمين الأزواد، فكان الجواز الثاني بعد طلب أهل الأندلس منه النجدة

* اتبع ابن تاشفين في علاقته بمملكة الجزائر الشرقية نفس السياسة التي اتبعها مع بني هود ملوك سرقسطة والثغر الأعلى، فكلتا الدولتين تشكلان حائلا بين إمارات النصارى وما يليها من بلاد المسلمين، وكلتاهما لم تمارس فعل الخيانة والتقاعس والتحالف مع الفرنج،انظر: ابن سعيد المغربي، علي بن موسى(٦٨٥هـ/١٢٨٦م)، **المغرب في حلى المغرب**، تحقيق، شوقي ضيف، دار المعارف بمصر، ١٩٦٤م، ج٢،ص٤٦٧.

٦١. مجهول، **الحلل الموشية**، ص٧١، الفاسي، ابن أبي زرع، **الأنيس المطرب**، ص١٥٣، النويري، **نهاية الأرب**، ج٢٣، ص٤٥٥، ابن الخطيب، **أعمال الأعلام**، ص ١٥٩، ٢٤٥،ويذكر ابن الكردبوس أن ابن تاشفين قد أمده بألف فارس لتقوى شوكته في مواجهة العدو،انظر، ابن الكردبوس، **تاريخ الأندلس لابن الكردبوس**،ص١١٣.

٦٢. انظر، ابن عذاري المراكشي، **البيان المغرب**، ١٤٤/٤، ابن خلكان، **وفيات الأعيان**، ١١٧/٧، ابن خلدون، **العبر**، ٦/

الطوائف ليسوا أهلاً للحكم، لخروجهم المتواصل على أحكام القرآن، ولم يكتف بذلك، بل عمد إلى استطلاع رأي فقهاء المشارقة في هذا الحكم زيادة في الاطمئنان، فأيدوه جميعاً وفي جملتهم الطرطوشي(٦٥) وفقيه المشرق الغزالي (٦٦).

إن الانتصارات التي حققها المرابطون على أرض الأندلس في جوازهم الأول والثاني والثالث* مكنتهم من قلوب العامة فهال ملوكها الأمر، يقول المراكشي: " لما قهر ا العدو وهزمه على يد

٢٢١-٢٢٢.

٦٣. ابن القليعي:أبو جعفر أحمد بن خلف بن عبدالملك بن غالب الغساني، من أهل غرناطة، كان ثقة صدوقاً، توفي سنة (٤٩٨هـ/١١٠٤م) انظر: ابن بشكوال، **كتاب الصلة**، ص٧٥.

٦٤. يرجح أن يكون عبدالرحمن بن قاسم الشعبي أبو المطرف، كان فقيهاً ذاكراً للمسائل، شوور ببلده في الأحكام، سمع الناس منه لاشتهاره بالعلم والفضل، ت (٤٩٧هـ/١١٠٣م). انظر، ابن بشكوال، **كتاب الصلة**، ص٣٢٩ .

٦٥. الطرطوشي: أبو بكر محمد بن الوليد عالم أندلسي استقر في مصر وتوفي سنة ٥٢٠هـ/١٠٢٦م ويعد من الفقهاء المتشددين وصاحب كتاب سراج الملوك،،انظر ترجمته في كتابه الحوادث والبدع،نقلا عن مجلة معهد الدراسات الإسلامية بمدريد،مج٩- ١٠، ص١٩٦١،٣٨٩-١٩٦٢م

٦٦. أرسل ابن تاشفين إلى حجة الإسلام الإمام الغزالي (ت ٥٠٥هـ / ١١١١م) أبا بكر بن العربي (ت ٥٤٣هـ/ ١١٤٨م) أحد أهم فقهاء الأندلس، فقص على الإمام سيرة يوسف في دينه وتقواه وجهاده وأحوال الأندلس، فأصدر الإمام الغزالي فتوى شرعية تثبت شرعية ولاية يوسف وتجعل الخروج عليه خروجاً على الدين، ويجعل الغزالي اعتراف الخليفة العباسي شرطاً من شروط شرعية الحاكم، وقد أورد عنان نص الرسالة التي أرسلها الغزالي إلى أمير المسلمين يوسف يطلب الفتيا في افتتاح ممالك الطوائف، نقلها من مخطوط رقم ١٢٧٥المحفوظ بخزانة الرباط، وعنوانه " مجموع أوله كتاب الأنساب " لوحة(١٣٠-١٣٣). من ذلك "..وإذا نادى الملك المشمول بشعار الخلافة العباسية، وجبت طاعته على كلّ الرعايا والرؤساء، ومخالفته مخالفة للإمام وكل من تمرد واستعصى فحكمه، حكم الباغي، ومن حقّ الأمير أن يرده بالسيف، وأن يقاتل الفئة المتمردة على طاعته، لا سيما وقد استنجدوا بالنصارى، وأن يستمر في قتالهم حتى يعودوا إلى طاعة الأمير االعادل، المتمسك بطاعة الخلافة العباسية، ومتى تركوا المخالفة، وجب الكف عنهم..." انظر: عنان، محمد عبدا ، **عصر المرابطين والموحدين في المغرب والأندلس**،مطبعة لجنة التأليف، القاهرة، ط١، ١٩٦٤م، ص ٤٢-٤٣، وانظر الوثيقة، ص٥٣٠-٥٣٣.

ويرى حسين مؤنس، أن هدف ابن عربي من انتداب نفسه لهذه المهمة، كان التقرب من المرابطين، والوصول إلى مكانة طيبة في دولتهم، فقد كان بطبعه رجلاً طموحاً إلى الوجاهة والمكانة. انظر، مؤنس، حسين، **تاريخ الجغرافية والجغرافيين في الأندلس**، معهد الدراسات الإسلامية، مدريد، ط٢، ١٩٨٦، ص٤٠٠.لم يزد بروكلمان في تاريخه على ذكر فقيه المشرق أبي حامد الغزالي ذكرا من غير أن يبين فحوى الفتوى، انظر: بروكلمان، كارل، **تاريخ الشعوب الإسلامية**، نقله للعربية، نبيه فارس ومنير بعلبكي، دار العلم للملايين، بيروت، ١٩٧٤م، ص ٣٢١، ص٣٢١-٣٢٢،.

* اتفق ابن خلدون مع مجهول صاحب الحلل فقط على أنه كان لابن تاشفين جواز رابع للأندلس سنة ٤٩٦هـ/١١٠٢م بهدف النظر في مصالحها، وأخذ البيعة لابنه علي، ومن ثم عاد إلى مقره في مراكش حيث كان منتهاه فيها سنة ٥٠٠هـ/١١٠٦م، انظر، **مجهول، الحلل الموشية**، ص ٧٧، ابن خلدون، **العبر**،ج٦/٢٥٠، ومما ورد شعرا في جوازه الرابع قول أحد شعراء الأندلس، لم يرد اسمه في الحلل الموشية، فيه وفي بنيه،انظر: **الحلل الموشية**، ص ٧٧-٧٨(الكامل):

إن كان في الأسنان يحسب ثانيا   علي ففي العلياء يحســب أولا
كذاك الأيدي سواء بنانـــــــها   وتختص فيهن الخناصر بالحلا

أمير المسلمين أظهر الناس إعظامه ونشأ له الود في الصدور" (٦٧) وهذا النص يفسر كيف أنهم بفضل ما حققوه من انتصارات ضد النصارى، صاروا الحماة والمنقذين والمالكين القدرة على فرض الوحدة المطلوبة على أولئك الأمراء الذين أنهكوا البلاد ونهبوا خزائنها (٦٨)، ولربما حمل الضغينة ليوسف من قبل الأمراء، وراء السر في قلة ما ورد من شعر في هذه القيادة المميزة؛ إذ إن الشعراء مرتبطون بمجالس أمرائهم يأتمرون بأوامرهم وينتظرون عطاياهم.

علاقة ابن تاشفين بالمعتمد

حفظ ابن تاشفين للمعتمد فضله ودوره في أخذ زمام المبادرة في استدعاء المرابطين، وفي تيسير أمور المعارك مع العدو الأذفونش، وملوك الروم كافة حتى الجواز الثالث.

وكانت إشبيلية (مملكة المعتمد) آخر حصن يسقط بيد المرابطين، ومما يحفظ لابن تاشفين ما ورد من رسائله المرسلة للأمير بن باديس (٦٩) يشهد بها على بسالة المعتمد في الزلاقة (٧٠)، ورسائل تبين ثقته ورغبته في وضع غرناطة في يده بعد الإمساك بها ووقوفه إلى جانب المعتمد على إثر خلاف الأخير مع ابن رشيق(٧١)، أضف إلى ذلك أنه بجوازه الثالث لم تكن إشبيلية في حسبانه تقديرا لجهود المعتمد، ومؤازرته له في القضاء على العدو؛ لذا لم يأمر القائد سير بن أبي بكر (٧٢) فيها (٧٣).

---

٦٧. عبد الواحد المراكشي، **المعجب**، ص١٩٦، **وثائق تاريخية جديدة عن عصر المرابطين**، قدم لها محمود مكي، مكتبة الثقافة الدينية، ط١، القاهرة، ٢٠٠٤م، ص ٣٩.

٦٨. التواتي، عبد الكريم، **مأساة انهيار الوجود العربي بالأندلس**، مكتبة الرشاد، الدار البيضاء، ١٩٦٧م، ص ٣٠٠.

٦٩. ابن باديس هو الأمير عبد ا بن بلقين بن باديس ين حبوس بن زيري آخر ملوك غرناطة(٤٦٩هـ/١٠٧٧م) انظر: ابن بلقين، **مذكرات الأمير عبدا آخر ملوك بني زيري بغرناطة**، ص ٧.

٧٠. **الناصري، الاستقصا، ج٢**، ص ٥٤، محمد ماهر حمادة، **الوثائق السياسية والإدارية**، ص ٦٣.

٧١. ابن بلقين، **مذكرات الأمير عبدا** ، ص١١٢، ١٦٥.

٧٢. من أشهر قواد المرابطين، أخذ إشبيلية من بني عباد، قدمه أمير المسلمين يوسف وولاه إشبيلية،عام ٤٨٨هـ/١٠٩٥م، خرج لوداع زوجته حواء وأختها حين خروجهما من إشبيلية، فمرض في تلك الليلة وتوفي سنة ٥٠٧هـ/١١١٣م. **ابن عذاري المراكشي، البيان المغرب**، ج٤، ٥٦-٥٧.

٧٣. اتجه القائد سير ين أبي بكر إلى إشبيلية، ظنّاً منه أن المعتمد سيتلقاه بالضيافة، لكن المعتمد تحصن منه، فراسله سير في تسليم إشبيلية فامتنع، ولم يزل سير وقواده في حصاره وقتاله، حتّى دخلوا إشبيليـ ـة، فأمنه في نفسه وماله وولده، وبعث بهم إلى أغمات وبقوا فيها حتّى أتاهم الموت.انظر، **الفاسي، ابن أبي زرع، الأنيس المطرب**، ص١٥٤-١٥٥، عبد الواحد المراشي، **المعجب**، ص٢٠٤-٢٠٥. ويورد ابن الأثير أن المعتمد سلّم البلاد بأمان، واستحلفهم با لنفسه وماله وعياله، فلما سلمهم إشبيلية، لم يفوا له بالأمان، وأخذوه وعائلته أسرى، واغتنموا أموالهم، وسيروهم إلى أغمات، وحبسوا فيها، ولم يجر عليهم ما يقوم بشؤونهم، حتّى كن بنات المعتمد يغزلن بأجرة، لينفقن على أنفسهن، انظر: ابن الأثير، **الكامل في التاريخ**، ج٨،ص ٤٦٩. في حين نجد ابن خاقان يسهب في وصف مقاومة المعتمد لجنود ابن تاشفين وحمله عليهم في رحبة قصره، انظر، ابن خاقان، قلائد العقيان،ج١،ص٢٢، ويمكن للمتبصر أن يقرأ كلتا الروايتين في انسجام وتكامل، ذلك أن المقاومة تمت في البداية ثم انتهى الأمر بضرورة تسليم البلاد بصورة سلمية.

ولعل السبب في حبس المعتمد في إغمات*، وهو قائد لا يستهان به وبقوته وحنكته، حتى الممات، كي يكون تحت رقابة ابن تاشفين، فيأمن جانبه ويطمئن من ناحيته فلا يجد سبيلا للهرب أو الثورة (٧٤).

التفت الدارسون إلى أن ثمة تفاوتاً في سلوك ابن تاشفين تجاه أميرين من أمراء الطوائف بعد خلعهما: صاحب غرناطة وصاحب إشبيلية، ويذكر الفاسي أن يوسف في جوازه الثالث، وصل إلى غرناطة فتحصن منه صاحبها ابن بلقين، فحاصره ابن تاشفين شهرين، وما لبث أن طلب منه الأمان، فأمنه بعد تسليم غرناطة، وبعث به إلى مراكش مع حريمه وأولاده، مجرياً عليهم النفقة(٧٥).

ويجد المدقق في الروايتين السابقتين أن تعامل ابن تاشفين مع المملكتين (غرناطة ابن بلقين، وإشبيلية المعتمد) متباين، ولربما نتج هذا التباين من ردود فعل كل من الأميرين، فالمعتمد انقبض على يوسف بعد أخذ الثاني غرناطة من ابن بلقين، فجزع وخاف أن يثنّى به(٧٦)، فتحصن وقاوم، في حين أن ابن بلقين سلم بشرط الأمان، وربما هذا ما حاول المؤرخون خوضه لإيجاد تفسير لهذه القسوة التي أبداها ابن تاشفين بعد أن كانا حليفين، ونسبها بعضهم إلى الفتوى التي أصدرها فقهاء الأندلس بحق أمراء البلاد، بأن الواجب يحتم على ابن تاشفين خلعهم(٧٧) ونسي أصحاب هذا الرأي أن الفتوى تجري على ابن بلقين والمعتمد وعلى جميع ملوك الطوائف على حد سواء ؛ أضف إلى ذلك أن قضايا الحنين للأهل والديار، وقسوة القيد سيطرت على شعره في أثناء سجنه في أغمات، ولا نكاد نجد بيتا واحدا يدين ابن تاشفين أو يعاتبه، ربما لإحساسه بذنب ما اقترف من خيانة التآمر وعدم صفاء النية، ونجد عكس ذلك كالقصائد التي يقر بها بفضل يوسف وسمو أخلاقه وترفعه، كما لا يمكن إغفال دور الساعين الذين مشَوا بينهما بالنمائم (٧٨)، وأورد صاحب قلائد العقيان رواية عن ابن صمادح (٧٩) أنه ما زال يتصنع إلى ابن تاشفين ويقرب ويفسد ما بينهما، ولما علم المعتمد بذلك كتب إليه (٨٠)، وقد وقعت هذه الدراسة على بيتين من

---

* أغمات أو إغمات: ناحية في بلاد البربر من أرض المغرب، قرب مراكش، وهما مدينتان متقابلتان، وأغمات كثيرة الخير، ومن ورائها إلى جهة البحر المحيط السوس الأقصى. الحموي، **معجم البلدان**، ج١، ص٢٢٥، **ابن خاقان، قلائد العقيان**، ج١، ص٩٥

٧٤. عبد ا ، عامر عبدا ، **تجربة السجن في شعر أبي فراس الحمداني والمعتمد بن عباد،** جامعة النجاح الوطنية، فلسطين، ٢٠٠٤م، ص ٦٨

٧٥. الفاسي، ابن أبي زرع، **الأنيس المطرب**، ص١٥٤.

٧٦. ابن بلقين**، مذكرات الأمير عبدا ،**ص١٦٨.

٧٧. عامر عبدا ، **تجربة السجن في شعر أبي فراس والمعتمد بن عباد،** ص ٧١ .

٧٨. الفاسي، ابن أبي زرع، **الأنيس المطرب**، ص١٥٤.

٧٩. ابن صمادح: المعتصم با محمد بن معن بن محمد عبدالرحمن بن صمادح، الداخل إلى الأندلس، وأهل بيته التجيبيين ولاة سرقسطة، كان حصيف العقل، يعقد المجالس للمذاكرة، ت(٤٨٤هـ/١٠٩١م). انظر، **ابن خاقان، قلائد العقيان**، ١٤٦-١٥٦، ابن الأبار، **الحلة السيراء**، ج٢، ٧٨-٨٤.

٨٠. ابن خاقان، **قلائد العقيان،** ج١/ ٧١-٧٣، العماد الأصفهاني(٥٩٧هـ/١٢٠٠م)، **خريدة القصر وجريدة العصر قسم شعراء المغرب والأندلس**، تحقيق، عمر الدسوقي وعلي عبد العظيم، دار نهضة مصر للطبع والنشر، مصر ١٩٦٤م،

الشعر وردا في ديوان المعتمد، كتبها للمعتصم با ابن صمادح حين سعى به إلى ابن تاشفين (الكامل) :

يا من تمرس بي* يريد مساءتي لا تعرضن فقد نصحتُ لمندم
من غره مني خلائقُ سهلـ ـ ـةٌ فالسم تحت ليان مس الأرقم (٨١)

ومهما اختلفت روايات المؤرخين، بين متعاطف مع المعتمد ومنكر لمافعله يوسف، وبين من أبان موقف يوسف وسداد رأيه وحكمته، بإعطائه الأمان للمعتمد وعائلته، وأخذهم سلماً إلى أغمات ، فإن دور يوسف في إنقاذ الأندلس وماحقّقه في معركة الزلاّقة من دحر للعدو الفرنجي، واضح لا مرية فيه وتجمع عليه جميع المصادر الأندلسية والمغربية، والمشرقية.

عهد المرابطين بين ضعف الشعر وتوحيد الديار الإسلامية

رغم قصر عهد المرابطين(٤٤٧-٥٣٩هـ/١٠٥٥-١١٤٤م) فإن دولتهم بلغت بحدودها من وسط السودان إلى وسط الأندلس، ومن جزائر بني مزغنة(الجزائر) إلى المحيط الاطلسي(٨٢)، ويذكر أنه لم يبلغ تشجيع الأدب، الشعر خاصة، ما بلغه في عهد ملوك الطوائف،وتحديدا في إشبيلية(٨٣)، فالشعراء يلتفون حول المعتمد يمدحونه ويتمادحونه لأنه شاعر بالدرجة الأولى، مقابل ذلك رفع المرابطون من شأن الفقه والعلم والعلماء لأنه كان نتاج فكرهم ووعيهم لرسالة القيادة، فضلاً عن أنه يحقق انسجاما مع دعوتهم الجهادية(٨٤).

ومما يدلل على عدم انصراف المرابطين لشؤون الأدب، خاصة المديح منه(٨٥) ما نقله ابن

جزءان،ج١، ص ١٥٠.

* تمرس بي: وردت عند ابن خاقان، في **قلائد العقيان** (تعرض لي)، ج١، ص ٧١.

٨١. ابن عباد، **ديوان المعتمد،** ص٦١.

٨٢. ابن منصور، عبدالوهاب، **قبائل المغرب،** المطبعة الملكية، الرباط،١٩٦٨م، ج١، ص ١٢٣. الفاسي، ابن أبي زرع، **الأنيس المطرب،** ص١٠٢.

٨٣. صنف آنخل بالنثيا الإمارات كل حسب اللون الثقافي الذي يميزها،فكانت إشبيلية، وبلنسية، ومرسية، وبطليوس، ومرية، من الإمارات الأكثر عناية بالشعر والشعراء، انظر بالنثيا، آنخل جنثالث، **تاريخ الفكر الأندلسي،**ترجمة، حسين مؤنس، ط١، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، د.ت, ص١٥-١٧.

٨٤. يقول صاحب المعجب: " وانقطع إليه من أهل الجزيرة من كل علم فحوله حتى أشبهت حضرته حضرة بني العباس في صدر دولتهم، واجتمع لولاته من بعده من أعيان الكتاب ورؤساء البلاغة ما لم يتفق اجتماعه في عصر من الأعصار" انظر، عبد الواحد المراكشي، **المعجب،** ص١٦٣-١٦٤.

٨٥. أظهرت الوثائق المكتشفة ان القرن الخامس الهجري يعد حقبة مميزة في تاريخ الفكر الأندلسي،فقد امتازت بالتجويد في تخصصات جديدة كالجغرافية والفلسفة والطب والعقاقير، ولما عصفت الحروب اعتكف بعضهم وصمت آخرون وبزوال ملوك الطوائف صار أدعى أن ينصرف أهل العلم لعلومهم مبتعدين عن السياسة، تاركين مقارعتها لأهل السلطان، انظر، الشريف الإدريسي، **الجغرافية والجغرافيون في الأندلس،** عرض:حسين مؤنس، مجلة المعهد المصري للدراسات الإسلامية بمدريد، مج٩-١٠، ص٢٥٨-٢٥٩. هازارد.و.هاري، **أطلس التاريخ الإسلامي،** ترجمة:إبراهيم زكي خورشيد، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ١٩٥٥م، ص١٤. **تاريخ الفكر الإسلامي،** ص٢١، وانقطع الشعراء منهم إلى الفن الشعري دون الابتذال في المديح وبعضهم كان من أصحاب المهن امثال ابن غالب

عذاري المراكشي صاحب البيان المغرب ، لما عاد المعتمد بعد الانتصار في الزلاقة إلى إشبيلية جلس يستقبل الشعراء ينشدونه، في حين أن ابن تاشفين لم يصنع مجلسا لاستقبال المهنئين والشعراء والمداحين، وفضل العودة مباشرة إلى مراكش(٨٦)، ومما لا شك فيه أن الابتعاد عن مجالس الأدب يسهم في إضعاف ذكر صاحب المجلس في مجالس الشعراء والمداحين الذين يترقبون العطايا *، ويمكن أن يستدل على ذلك بقول ابن اللبّانة، وهو أحد شعراء البلاط، يصرح برغبته في العطايا بعد أن شاركه في أرض المعركة، لكنه لم يجد فرصة للمثول بين يديه لكثرة المداحين في بلاطه، مستخدما أسلوب المقايضة في التعبير عن طلبه (الكامل) :

قد كنتُ في أرض الوغى أجني الردى		وأنا بروض الجود لا أتنسم
وعسى أراك بحيث ينبعث الندى		ولقد رأيتك حيث ينبعث الدم (٨٧)

ولا بد لدارس هذه الحقبة من الوقوف على رسالة الشقندي (٨٨) "في تفضيل أهل الأندلس على بر العدوة" التي طعنت في المرابطين، ويبدو أن سبب ذلك يعود لزمن تأليفها في عهد الموحدين*، فالشّقندي في موقف مفاخرة وتملّق للموحدين الذي حاربوا المرابطين وأباحوا دماءهم؛ لذا فمن الطبيعي أن يهجو ويفخر، يقول فيها "ما كان أعظم مباهاتهم (ملوك الطوائف) إلا قول العالم الفلاني عند الملك الفلاني والشاعر الفلاني مختص بالملك الفلاني..." ويقول بعد ذلك ذاما المرابطين: "وبا إلا ما سميت لي بمن تفخرون قبل هذه الدعوة المهدية(٨٩)، أبسقّوت الحاجب (٩٠)

البلنسي(٥٧٩هـ/١١٨٣م) وابن خفاجة أشهر شعراء الوصف، وانصرف غيرهم إلى الابتكار في فن القول كابن قزمان(٥٠٨هـ/١١١٤م)مبتكر الأزجال،انظر، محمود على مكي ، **سير المكتبة الأندلسية والمغربية**،، صحيفة المعهد المصري للدراسات الإسلامية،بمدريد، مج٩-١٠، ١٩٦١-١٩٦٢م، ص٣٨٦.

٨٦. ابن عذاري المراكشي، **البيان المغرب**، ج٤/ ص ١٤٠.

* يصرح ابن حمديس أحد أكثر الشعراء ذكرا للمعتمد إبان الزلاقة في قصيدته الميمية الشهيرة في مدح المعتمد بطلب العطايا (الوافر):

وتهمي من أنامله العطايا		فتحسبها نجوما للنجوم
وتصدر عن ندى يده الأماني		إذا وردته هيما غير هيم
إذا نسي الكرام أناب ذكرا		يسافر في فم الزمن المقيم

انظر، ابن حمديس، **ديوان ابن حمديس**، دار صادر بيروت، ١٩٦٠م، ص ٤٣٦-٤٣٧. وهوعبد الجبار بن أبي بكر بن حمديس الصقلي(٥٢٧هـ/١١٣٢م) شاعر مبدع ولد في جزيرة صقلية من أصل عربي أزدي، اتصل بالمعتمد ولم يتصل بالمرابطين إلا بعد وفاة المعتمد بن عباد، انظر ترجمته في، ابن خلكان، **وفيات الأعيان**،ج٣،ص ٢١٢-٢١٥.

٨٧. ابن بسام، **الذخيرة، ق٢، م٣**، ص ٦٨٠.

٨٨. أبو الوليد إسماعيل بن محمد الشقندي ولي قضاء بياسة وقضاء لورقة ومات بإشبيلية سنة ٦٢٩هـ/١٢٣١ م،انظر ترجمته في ابن سعيد المغربي، **المغرب**،ج١،ص١٤٧،١٥٦،١٧٦، المقري، **النفح**، ج٢،ص ١٥٠-١٥١،

* الموحدون بربر من قبيلة مصمودة، قامت دولتهم في المغرب العربي بعد المرابطين، لكنّهم اختلفوا معهم في العقيدة، فالدولة الموحدية، قامت على عقيدة فكرية، وقربت الأدباء والشعراء لتوطيد أركان الدولة، والترويج لفكرها، انظر **دائرة المعارف الإسلامية**، مج ٣،ص ٥٠٦-٥٠٧.

٨٩. المهدي بن تومرت مؤسس دولة الموحدين، انظر، ابن الأبار، **الحلة السيراء**،ج٢،ص ٧٦،

أم بيوسف بن تاشفين؟ الذي لولا توسط ابن عباد بشعراء الأندلس في مدحه ما أجروا له ذكرا ولا رفعوا لملكه قدرا. وقد سئل مرة بعد أن أنشدوه :أيعلم أمير المسلمين ما قالوه؟ قال لا أعلم ولكنهم يطلبون خبزا، و....، ولما انصرف المعتمد إلى حضرة ملكه، كتب ليوسف رسالة يبثه فيها أشواقه (البسيط):

بنتم وبنا فما ابتلّت جوانحنـــا   شوقاً إليكم ولا جفّت مآقينـــــا
حالت لفقدكُم أيامنا فغـــــدت   سوداً وكانت بكم بيضاً ليالينـــا

يرى الشّقندي أن يوسف قد فهم من الأبيات أن المعتمد يطلب جواري سودا وبيضاً[٩١]، وفي هذا تجن واضح، فابن تاشفين الذي" لا يعرف باللّسان العربي، إلا أنه ذكي الطبع ، يجيد فهم المقاصد"[٩٢]، ولا يمكن أن يصل إدراكه إلى هذ الحد من السقم. وخاصة أن المصادر تورد اتخاذه كاتبا يفهم اللغتين المرابطية والعربية [٩٣]، وقد وردت له كتب فيها رصانة وفصاحة، ضمن مراسلاته مع المعتمد [٩٤].

وإذا كان ابن تاشفين لم يحسن العربية، فذلك كونه من البربر غير العرب ، ولم تكن المغرب ذات الطبيعة الصحراوية تتسم بما كانت تتسم به بلاد الأندلس من تمدن وحضارة وعناية بمختلف جوانب الحياة.

ولعلّ في الشعراء الذين تذمروا من المرابطين وهجوهم كانوا متضررين من ذهاب مجالس الأدب والسمر التي أقامها ملوك الطوائف في قصورهم، حتى ما عاد التكسب بالشعر أمراً مستساغا.

ومن هؤلاء الشعراء الذين عبروا عن تذمرهم، الأعمى التطيلي*؛ إذ قال (الطويل):

أيا رحمتا للشعر أقْوت ربوعـــه   على أنها للمكرمات مناســــك
وللشعراء اليوم ثُلت عروشُهـم   فلا الفخر مختالٌ ولا العز تامـك [٩٥]

---

٩٠. سقّوت البرغواطي من قبيلة برغواطة الزناتي على ساحل المغرب الأقصى جنوبي طنجة، الحاجب سكوت البرغواطي: كان عبداً لشيخ حداد من موالي الحموديين اشتراه من سبي غرناطة من أيام جهادهم، ثم صار إلى علي بن حمود، استقل بالأمر، وتولى كرسي عملهم بسبتة وطنجة، وأطاعته قبائل غمارة، واتصلت أيام دولته إلى أن كانت دولة المرابطين. انظر، الناصري، **الاستقصا**، ج١، ص١٩٥، ١٩٦. ابن الأبار، **الحلة السيراء**، ج٢،ص ٥١.

٩١. **ابن خلكان، وفيات الأعيان،**ج٧،ص١١٤. الأبيات لابن زيدون، انظر **ديوان ابن زيدون،** تحقيق،حنّا الفاخوري، دار الجيل، بيروت، د.ت، ص١٨٧-١٨٨

٩٢. ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج٤، ص٣٥٥.

٩٣. كاتب ابن تاشفين ومستشاره الأول كان يدعى عبد الرحمن بن أسباط او أسبط، وتبعه ابن القصيرة الذي عرف كأحد أهم كتاب المراسلات في عهد المعتمد، انظر، مجهول، **الحلل الموشية،** ص ٤٩.

٩٤. انظر، ابن خلكان، **وفيات الأعيان،** ٧ /١١٤، مجهول، **الحلل الموشية،** ص٢٩ وما بعدها

* الأعمى التطيلي، أبو جعفر أحمد بن عبدا (ت: ٥٢٥هـ/١١٣٠م) أديب بارع شعراً ونثراً، لم يعمر طويلاً، انظر، **الذخيرة**، ق٢، م٢، ٧٢٨-٧٥٣، ابن خاقان، **قلائد العقيان،** ١٧٣.

٩٥. الأعمى التطيلي، **ديوان الأعمى التطيلي** ومجموعة من موشحاته، تحقيق، إحسان عباس، دار الثقافة، بيروت،١٩٦٣م، ص٩٠. التامك: السنام المرتفع، انظر ابن منظور، أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم الإفريقي المصري (ت:

ومما لا شك فيه، أنّه ليس من السهل على بلاد الأندلس، وقد كانت ترزح تحت حكم أكثر من عشرين بلاطا أن تتحول جميعها إلى قيادة واحدة، فهذا التحول بحد ذاته يورث الإرباك.

وفي هذا السياق تتعدد آراء الدارسين، يقول ابن بسام: " لما صمت ذكر ملوك الطوائف بالأندلس، طوي الشعر على عزه وبرئ من حلوه ومره إلا نفثة مصدور والتفاتة مذعور[٩٦]. إلا أن غرسيه غومس يرى "أن الشعر الأندلسي لم يمت في عصر المرابطين ، وكل ما حدث أنه كيف نفسه بما يلائم الظروف الجديدة التي أحاطت به، بيد أنه من الإنصاف القول إن خلفاء يوسف بن تاشفين لم يلبثوا أن استسلموا لسلطان الثقافة الأندلسي، وأصبحوا أقرب إلى الأندلسيين منهم إلى الأفارقة[٩٧]، في حين لم ينكر إحسان عباس أن ألق الصبغة الشعرية الذي كان يزين بلاط بني عباد قد ضاع، أما الشعراء عامة فلم يتغير حالهم"[٩٨]. وأضاف غيرهم أن الشعر في عهد المرابطين التزم جانب الحشمة وابتعد عن الهجو المقذع والغزل الفاحش وصار الأدب صورة لحياتهم [٩٩].

مما سبق، يبدو جليا أن إجماعا يقضي بأن تحولا ما أتى على الشعر، وتحديدا المدح منه؛ لفقدان البيئة المناسبة له بوصفه غرضا ذا أهداف سياسية من جهة، ومصالح متبادلة بين المادح والممدوح من جهة ثانية، أكثر من كونه غرضا إنسانيا.

صورة ابن تاشفين والمعتمد بن عباد في الشعر

رغم أهمية معركة الزلاقة في الاحتفاظ بالأندلس وهيبتها أمدا طويلا، فإن ما قيل فيها من شعر لا يرتقي إلى مستوى الحدث، وجل القصائد التي قيلت فيها كانت جزءا من قصائد المدح التي قالها شعراء البلاط في ملوك الطوائف، وتحديدا في المعتمد بن عباد، ويعزو بعض الدارسين سر ذلك إما إلى البلاغة التي أقفرت، أو الضياع، أو إلى الدهشة من هول النصر الذي يعقد اللسان[١٠٠]. ولا تشترط الدراسة صحة هذا التسويغ؛ فلا ندري لم قدر أصحاب هذا الرأي فكرة الضياع لقصائد الواقعة دون قصائد الوصف والفخر وغيرها، كما أن هول الدهشة التي تعقد اللسان لا مجال لها في هذه المرحلة من صراع الأندلسيين مع الفرنج، فالأولى في النصر أن يؤجج لا أن يلجم[١٠١].

٧١١هـ/١٣١١م)، **لسان العرب**، دار صادر، بيروت، د.ت، مج١٠، مادة تمك، ص٤٠٧.

٩٦. ابن بسام، **الذخيرة**، ق٢، م٢، ص٦٦٩.

٩٧. غرسيه غومس، إميليو، **الشعر الأندلسي بحث في تطوره وخصائصه**، ترجمة حسين مؤنس، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ١٩٥٦م، ص ٥٧، ٥٨.

٩٨. عباس، إحسان، **تاريخ الأدب الأندلسي، عصر الطوائف والمرابطين**، دار الثقافة، بيروت،١٩٩٧م، ص٦٤.

٩٩. حركات، إبراهيم، **المغرب عبر التاريخ**، دار الرشاد الحديثة، الدار البيضاء، ط٢، المغرب، ١٩٨٤م، ج١، ص٢٣٠.

١٠٠. بهجت، منجد مصطفى، **واقعة الزلاقة كما صورها الشعر الأندلسي**، ص ٤٤٢،٤٤٤ .

١٠١. ليس أدل على ذلك من معركتي الرها(٥٣٩هـ/١١٤٤م)، وحطين (٥٨٣هـ/١١٨٧م)، وموقعة الأرك (٥٩١هـ/١١٩٤م) وهي معارك ألهبت مشاعر المسلمين في المشرق والمغرب، وفجرت كوامن الشعراء الفنية، فقيل فيها

ونجد أن معظم ما ورد من شعر في المصادر الأدبية يكاد يقتصر على دور المعتمد بن عباد في المعركة دون بقية الممالك ، حتى إن معظم الشعراء في ذلك الوقت أمثال ابن عبدون [١٠٢] الذي كتب قصيدة طويلة يرثي فيها حال ملوك الطوائف[١٠٣]، وابن خفاجة [١٠٤]، الذي كتب يصف حال الطوائف*، وأبي الحسن الحصري[١٠٥]، وابن أبي الصلت الداني[١٠٦]، وابن الزقاق البلنسي[١٠٧]، وابن اللبانة[١٠٨]، والأعمى التطيلي، جميعهم لم نجد لهم شعرا يخلد الانتصار في هذه المعركة ، كما أن صمتهم ليس دهشة بل حصلت تحولات في مسار الحركة الشعرية وبدأ الشعراء بالانصراف عن السياسة التي كان البلاط يجسدها لهم بصورة من الصور، وينشغلون بمسائل فنية جديدة في الشعر والأزجال*.

وفي ضوء ما وصل من قصائد في الزلاقة لاحظت الدراسة أن إشادة الشعراء بيوسف ترد على سبيل الإشارة ضمن القصائد المطولة التي قيلت في مدح المعتمد ، ولعل ثمة تساؤل: بم نفسر ظهور ابن تاشفين بهذا الاقتضاب أو بعبارة أخرى، على شكل ومضة ، بالكاد يرد في

الكثير من الشعر إثر تحقق النصر للمسلمين على أعدائهم.

١٠٢. ابن عبدون: أبو محمد عبدالمجيد الفهري (ت: ٥٢٩هـ /١١٣٤م وقيل ٥٢٠هـ/١١٢٦م)، شاعر في بلاط المتوكل بن الأفطس، رحل إلى المعتمد بن عباد ولم يجد قبولاً، وترك الشعر حين انتهى عصر الطوائف. ابن بشكوال، **كتاب الصلة**، ٣٦٩-٣٧٠، عبد الواحد المراكشي، **المعجب**، ص ١٢٨، ١٢٩، ١٤٤.

١٠٣. ابن الأبار، **الحلة السيراء**،ج٢/ص ١٠٣.

١٠٤. ابن خفاجة: أبو إسحق بن خفاجة (ت: ٥٣٣هـ/١١٣٨م)، من أهل جزيرة شقر من أعمال بلنسية، أشهر من وصف الطبيعة.انظر، ابن خاقان، قلائد العقيان ، ٧٣٩-٧٦٤.

* له مقطوعة تلهب المشاعر في وصف ضعف الطوائف، ومطلعها:

عاثت بساحتك الظبا يا دار ومحا محاسنك البلى والنار

انظر:ابن خفاجة، أبو إسحق، سبقت ترجمته، **ديوان ابن خفاجة**، تحقيق مصطفى غازي، دار المعارف بمصر، ١٩٦٠م، ص ٣٥٤.

١٠٥. أبو الحسن الحصري: علي بن عبدالغني الكفيف (ت: ٤٨٨هـ/١٠٩٥م)، من أهل سبتة، من فحول الشعراء، كان مقرباً لدى الملوك وشعره متداول بين الناس، انظر، ابن خميس، أبو بكر محمد بن خميس المالقي (ت: ٦٣٩هـ/١٢٤١م)، **أدباء مالقة**، دار البشير، عمان، ١٩٩٨م، ص ٣٠٨-٣١١.

١٠٦. ابن أبي الصلت: أمية بن عبد العزيز الداني، أبو الصلت، من أهل دانية، ولد فيها وارتحل إلى المشرق، أقام بمصر عشرين سنة، له شعر ذو رقة وجودة، وله كتاب الحدائق، (ت: ٥٢٩هـ/١١٣٤م).انظر، **وفيات الأعيان**، ج١، ٢٢٠-٢٢٣، ياقوت الحموي، شهاب الدين الرومي (ت: ٦٢٦هـ/١٢٢٨م)، **معجم الأدباء**، تحقيق، إحسان عباس، دار الغرب الإسلامي، ط١ ١٩٩٣م، ٧ أجزاء، ج٢، ص ٧٤٠-٧٤٣.

١٠٧. ابن الزقاق البلنسي: علي بن عطية بن مطرف، ابن أخت الشاعر ابن خفاجة، (ت ٥٣٠هـ/١١٣٥م). انظر، الحلة السيراء، ج٢، ١٩، ٢٠. ابن خلكان، **وفيات الأعيان**، ج١، ٣٥، ج٧، ٢٤١.

١٠٨. ابن اللبانة، أبو بكر محمد بن عيسى الداني، (ت٥٠٧هـ/١١١٣م)من المقربين للمعتمد، واشتهر بوفائه لذكرى إمارته بعد خلعه، انظر، ابن الأبار، **الحلة السيراء**،ج٢،ص٥٨،

* ظهر ابن قزمان في هذه الحقبة وقد انشغل بابتداع فن الزجل الذي لفت الانتباه إليه بوصفه فنا جديدا، وهو أبو بكر بن عيسى الملقب بالأصغر (٥٠٨هـ/١١١٤م)، يعد إمام الزجالين، ارتحل في بلاد الأندلس، ومدح حماة الأدب. انظر، الذخيرة، ق٢م٢، ص٧٧٤-٧٧٦.

مقطوعة أو بيت، أو شطر من بيت ، أو بصورة رمزية؟ يبدو أن المسألة لها جوانب عدة كميل الشعراء للتعامل مع المعتمد بوصفه شاعرا، وبدا للأندلسيين بصورة المحرض على كره الفرنج وتطهير البلاد منهم، فعدوه المخاص الفعلي من شر الفرنج ، وبما أنه صاحب الديار ومليكها ومغدق العطايا فيها، فقد نسبوا إليه البطولة دون ابن تاشفين القادم من الصحراء لمد يد العون لهم، فهو، في نظرهم، طارىء جاء ليقدم خدمة محددة بعد الطلب منه ذلك، أضف إلى ذلك أن الذين ذكرتهم كتب الأدب، ووردت لهم قصائد في الزلاّقة، هم شعراء بلاط المعتمد، من مثل: ابن حمديس الصقلّي، وابن وهبون [١٠٩]. أضف إلى ذلك أن اجتياز يوسف ديار الإندلس كان محكوما بشرط الجهاد، فلم يعط نفسه فرصة الاختلاط بالمجتمع الأندلسي، فما لبث أن تمم النصر في الزلاقة حتى قفل راجعا إلى مراكش، عاصمة المرابطين، تاركا أبناءه وقادته يديرون شؤون الممالك[١١٠]، وربما هذا ما تستند إليه الدراسة في تفسير ظهوره على سبيل الومضة في متن قصائد طويلة ، ولكن رغم محدودية الحضور على الصعيد الفني فإن الدراسة لمست قيمة هذا الحضور بحجم المخاص التقي الورع.

فقد بدا كالأيقونة او الهالة التي تضيء ثنايا النص، وتضبط روح القصيدة ومن ثم يختفي تاركاً بقية النص للممدوح (المعتمد)، كمثل تشبيهه بالشهد، والزلال، والنّضار، وغيرها.

ومما يلفت الانتباه النهج الذي اتبعه المداحون في ذكر ابن تاشفين، فقد تعمد بعض الشعراء رد نسب ابن تاشفين إلى قبيلة عربية، فكما المعتمد بطل عربي شجاع، كان لزاماً عليهم أن يصبغوا على حليفه البربري صبغة العروبة*؛ حتى يلذّ لهم المدح ويستطيبونه، يقول ابن وهبون* (الوافر):

فثار إلى الطعان حليفَ صـــدق ... تثور به الحفيظةُ والذمـــــــام
نُمي في حمير ونَمتْك لخـــــم ... وتلك وشائج فيها التحـــــــام
فيوسفُ يوسفٌ إذ أنت منـــــه ... كيامن[١١١] لا وهى لكُما نظـــام

١٠٩. ابن وهبون: أبو محمد عبدالجليل بن وهبون، من الشعراء المقدمين في بلاط المعتمد، شاعر مطبوع اتصل بصاحب المرية المعتصم بن صمادح. انظر، ابن خاقان، قلائد العقيان ، ص٧٧٦-٧٧٥.

١١٠. بدأ ابن تاشفين بخلع أول ملوك الطوائف الأمير عبدا بن بلقين، ثم عاد إلى مراكش وطلب من قائده سير بن أبي بكر إكمال مهمة خلعهم حتى توحدت الأندلس ما عدا سرقسطة. انظر، مؤنس، حسين، **الثغر الأعلى الأندلسي في عصر المرابطين مع أربع وثائق**، م.كلية الآداب، جامعة القاهرة، القاهرة، مج١، ج٢، ١٩٤٩م، ص٩١.

* لابن خفاجة مقطوعة يرد فيها نسب المرابطين إلى صنهاجة العرب يقول(الكامل)

تنميهم الدنيا إلى صنهاجة ... والدين ينميهم إلى الأنصار
شادت يد العلياء في عرصاتهم أعلى منار في أعز ديار

انظر، ابن خفاجة، **ديوان ابن خفاجة**، ص ٣٨.

* لم يصل إلينا ديوان بن وهبون، وكان الاعتماد على الذخيرة؛ إذ أورد معظم شعره وخاصة القصائد التي قالها بعد الزلاقة.

١١١. مثل يامن، ويعني بنيامين أخا يوسف عليه السلام، انظر الطبري، أبو جعفر محمد بن جرير (ت:٣١٠هـ/٩٢٢م)، **تاريخ الطبري**، تاريخ الرسل والملوك، تحقيق:محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعارف بمصر،١٩٦٠م، ٨ أجزاء،

وكما جعله حليفا في الأصول والنسب، يجعله حليفا في الغاية، وينسب إليه عظيم الفعل بالكافرين، فهو الذي أهال على الكفر التراب:

فهيل به كثيب الكفر هيـلا وكل رقيقة منها ركـــــــــام(١١٢)

وكعادة المداحين الذين يقيمون قصائدهم على مفاصل مهمة في الممدوح كالنّسب والأصول العربية، والشجاعة في المعارك وحسن القيادة، لا بد من تناولهم للجيش، فصورة الجيش الذي يتزعمه الزعيم المرابطي، لا تقلّ عظمة عن قائده، يخوض غمار المعركة بثقة، ويبغي الأجر من ا كما يبغي الشهادة أو النصر، فهو بعبارة أخرى نتاج قوة القائد وعظمته الذي علمهم ودربهم وحفّزهم للاستبسال في سبيل ا ، ويكاد يقتصر ذكر ابن تاشفين في رائية ابن وهبون الطويلة المخصصة لمدح المعتمد على شطر من بيت قاسمه وإياه المعتمد (البسيط):

أتنكر العجم أن العرب سادتُهـــا وتشهد البيض والخطيةُ السمـــُـر
وليرقبوا من أمير المسلمين ومـن مؤيد الدين ليلاً ما له سحـــر(١١٣)

ويتعرض ابن حمديس في ميميته الطويلة إلى يوسف (القائد) والملثمين(الجيش) وصفا الجيش المظفر، إلى أن يصل إلى أعلى مستويات التعبير الفنية، بإيقاع مناسب تجري فيه نفثات الإحساس بالانتصار والقوة (الطويل):

نقمتَ على من آسفوك بيـــوسف وما زلت ممن خالَفَ الحقّ ناقمـــا
بنو الحرب غذتهم لَبان ثُديهـــــا ولم يستطيبوا منه إلاّ العلاقمـــــا
إذا طَعنوا بالسمهرية خلتَهــــــم ضراغم تُغري بالقلوب أراقمــــا
وإن كر منهم ذو لثام مصمــــــم غدا لفم الهـيجاء بالسيف لاثمـّا(١١٤)

ويتفنن ابن القزاز(١١٥) في مدح المعتمد بعد أن تعرض لجراح بليغة في معركة الزلاقة بأن يجري مدحه على لسان ابن تاشفين،فشهادة يوسف خير الشهادات وأقوى ألوان التمجيد بعد. (الوافر):

رأى منه أبو يعقوب فيهــــا عقاباً لا يهاض لها جنـــــاح
فقال له لك القدح المعلـّـى(١١٦) إذا ضربت بمشهدك القـــداح (١١٧)

ج١،ص٣٤٨،

١١٢. ابن بسام، **الذخيرة**، ق٢،م١، ٢٤٥-٢٤٧ .

١١٣. ابن بسام، **الذخيرة**، ق٢، م١، ص ٢٥٥.

١١٤. ابن حمديس، عبد الجبار،(ت٥٢٧هـ/١١٣٣م)، **ديوان ابن حمديس**، دار صادر، بيروت، ١٩٦٠م، ص ٤٢٦.

١١٥. ابن القزاز: أبو عبدا محمد بن عبادة المعروف بابن القزاز (ت: ٥٠٠هـ/١١٠٦م)، من مشاهير الأدباء والشعراء الأندلسيين، وأكثر ما اشتهر في الموشّحات، وله نظم في المعتمد بن عباد، كان شاعراً مقدماً عند المعتصم بن صمادح. انظر،ابن بسام، **الذخيرة**، ق١، م٢، ٨٠١-٨٠٨.

١١٦. القدح المعلّى: القدح السابع في الميسر وهو أفضلها،يحوزها المتباري إذا فاز، انظر، ابن منظور، **لسان العرب**، مج ١٥،مادة علا، ص٩١.

١١٧. ابن بسام، **الذخيرة**، ق٢، م١، ص ٢٤٥، ق١،مج ٢، ص٨٠٣،

يتضح لنا أن الشاعر يؤمن بأن حضور ابن تاشفين في المعركة أكبر من حضوره في قصيدة المدح، فهو القادر على تقييم المعركة والجيش والقائد، وهو المخول الوحيد بمنح شهادة الاعتراف بشجاعة المعتمد وفروسيته.

ولا شك أن في شاعرية المعتمد، وفهمه لمواطن البلاغة والجمال، جعلت الشعراء يبتكرون في الصور والمعاني. وتجدر الإشارة إلى أن صورة يوسف المفردة في الشعر الذي قدمه شعراء البلاط لملكهم وشاعرهم المعتمد، قد حضرت طّوراً وغابت أطواراً. وأطلق بعض الدارسين(١١٨) حكما عاما في هذا السياق، عدوا فيه مدح المعتمد الصريح والمباشر من ذكر محاسنه وفعاله وخصاله وذكائه وحنكته وغيرها بالضرورة مدحا ضمنيا لابن تاشفين دون تبين الوجه الفني لذلك،وليس بالضرورة أن يكون دقيقا، إلا إذا تم استجلاء المواطن التي يصلح فيها المدح بصورتيه الضمنية والصريحة، ولو سلمنا بالقول إن شعر الحروب والمعارك يمكن أن يكون صورة واضحة تعكس المنجز القيادي بكل تفاصيله حتى يكاد يعد وثيقة تاريخية في بعض الحالات، تغني في رصد مجريات الواقعة وأثرها في نفوس الناس، والمدقق في مجموع ما قيل في ابن تاشفين، على قلته، يجد فيه من الإشارات والإيماءات، ومن التكثيف ما يعين على فهم صورة هذا القائد عند الأندلسيين. كما مر وسيمر لاحقا. إلا أنهم رغم ذلك، لم يتوانوا عن الشطط في تجاوزهم لدور ابن تاشفين ونسبة مجريات النصر وطرقه التي اعتمدها في التنكيل بجيش العدو للمعتمد، يقول ابن حمديس(الكامل):

تبنى الصوامع من رؤوسهم بما	كانت على هدم الصوامع تغتدي(١١٩)

وقد ورد ضمن الروايات التاريخية أن رفع الرايات على رؤوس قتلى العدو كانت من أوامر ابن تاشفين الحربية وليس المعتمد.

يقول عبد الجليل بن وهبون مخاطبا الأذفونش ومستهزئا به وبجيشه، من خلال الإشارة إلى تكوين الجيش المسلم، فيمد أصول المعتمد إلى سام بن نوح عليه السلام الذي انحدر منه العرب، وحام الذي انحدرت منه شعوب السودان والأمازيغ و(البربر)(١٢٠) (الوافر):

فإن شئت اللجين فثم سـ ـ ـ ـام	وإن شئت النّضار فثم حـ ـ ـ ـام(١٢١)

وتنكشف في هذا البيت مستويات من المفاضلة في الوصف بين المعتمد وابن تاشفين لصالح ابن تاشفين؛ فقد شبه سلالة الشاعر المعتمد باللجين ومعناه الفضة الخالصة، في حين يشبه سلالة ابن تاشفين بالنّضار، وهو اسم جامع للذهب، والفضة معا، ويغلب عليه الذهب(١٢٢) .

تطرق ابن حمديس إلى المعاني الدينية في أكثر من قصيدة في مدح المعتمد متغنيا بالنصر

---

١١٨. بهجت، منجد مصطفى، **واقعة الزلاقة كما صورها الشعر الأندلسي**، ص٤٤٨ ,
١١٩. ابن حمديس، **ديوان ابن حمديس، ص**١٧٣.
١٢٠. ابن خلدون، **العبر**، ج٦،ص ١٢٥-١٢٧،
١٢١. ابن بسام، **الذخيرة**، ق٢، مج١، ص ٢٤٦-٢٤٧.
١٢٢. انظر، ابن منظور، **لسان العرب**، مج٥، مادة نضر،ص٢١٣، ومج١٣،مادة لجن،ص٣٧٩،

جاعلا حضور يوسف كالمر العلقم على الأذفونش (الوافر):

ومعترك تلقّى الفنـ ـش فيـ ـ ـ ـ ـه غريما مهلكا نفس الغريـ ـم

وذاق بيوسف ذي البأس بؤسـ ـا فمرر عنده حلو النعيـ ـ ـ ـم(١٢٣)

ثمة سيطرة للمعنى الديني في مجمل ماقيل في ابن تاشفين، فقد بدا واضحاً جليا أن ما ورد في الشعر صورة مشابهة لتلك التي أسس عليها ابن تاشفين دولته ، فمنطلقه في الحراك تقوى ا وهو الدافع وراء نجدته مسلمي الأندلس، وإنقاذ ديار الإسلام من الضياع، ورفع راية التوحيد على راية الكفر.

مدح الأعمى التطيلي المرابطين، مبينا دورهم في تثبيت دعائم الدولة والدين، وخلقهم وطباعهم الحادة، وقد يكون في ذلك إشارة إلى طباع البربر الحادة، الأكثر ميلا إلى الخشونة كما أوردتها الكثير من المصادر. (البسيط)

إذا رضوا فارجهم في كل نائبة وكن على حذر منهم إذا غضبوا

هم ثبتو الدين إذ ضاقت مذاهبه بأنفس صيغَ منها الدين والحسب(١٢٤)

ولعله من الطبيعي اتصال الشعراء بالمعاني الدينية في مثل هذه الظّروف التي تستدعي لحمة الصفّ والموقف والرأي، أمام اعتداء يهدد كيانها، فقد أكثر الشعراء من استخدام الألفاظ الدينية عامة كالكفر والإيمان والتوحيد والتثليث، مستمدين من القرآن الكريم معجمهم الخاص الذي يمدهم بالصور والمعاني كالريح الصرصر، وقاموا بتوظيف الألفاظ الصريحة من مثل لفظ الجلالة (ا) الذي ورد كأكثر لفظة، ويوم الحساب، والجهاد، والشهادة، وغيرها من الألفاظ الدينية.

وقد أورد ابن حمديس من معاني القرآن في الشعر الذي يجسد استعانة المعتمد بابن تاشفين المظفر بالريح العقيم، وهي ريح لا تحمل اللقاح ولا تأتي بالمطر؛ أي أنها مهلكة العدو لا محالة (الوافر):

ثنى توحيدك التثليثَ منـ ـ ـه يعض على يدي قَزع كظيـ ـ ـ ـم

ولما أن أتاك بقوم عـ ـ ـ ـاد أتَيتَ بصرصر الرّيح العقيـ ـ ـم(١٢٥)

وكما تجلت صورة ابن تاشفين في المنظور الديني كشفت القصائد عن تجليات صفة أخرى من الصفات المهمة في القائد الحقيقي ألا وهي الشجاعة، فتعلق شعراء الأندلس بابن تاشفين بوصفه المخلّص، وأنزلوه منزلة القائد المثالي المؤيد من ا ، وجعلوه الأنموذج المنتظر، مستمدين شعارهم من التاريخ وأبطاله. ولأبي الحسين بن الجد(١٢٦)، قصيدة يعقد فيها مقارنة بين ابن

١٢٣. ابن حمديس، **ديوان ابن حمديس**، ص ٤٣٧.

١٢٤. الأعمى التطيلي، **ديوان الأعمى التطيلي**، ص١٧

١٢٥. **ديوان ابن حمديس**، ص٤٣٧-٤٣٨. الريح العقيم:التي لا تكون معها لقح فلا تأتي بالمطر وإنما هي ريح مهلكة، انظر، ابن منظور، **لسان العرب**، مج ١٢، مادة عقم ، ص٤١٣.

١٢٦. أبو الحسين بن محمد بن الجد، الوزير الكاتب الأندلسي، له أخبار مع ابن عمار، وقد استكتبه، وقال فيه ابن بسام:

تاشفين وملوك الطوائف، يذمهم بها لأنهم كانوا سببا في ضياع الديار، ويشبه ابن تاشفين بعمر بن الخطاب القوي في الحق وفي حرصه وسهره على أحوال الرعية (البسيط):

أرى الملوك أصابتهم بأندلـ ـ ـس		دوائر السوء لا تُبقي ولا تـَ ـ ـذَر
ناموا وأسرى لهم تحتَ الدجى قَدر		هوى بأنجمهم خَسفا وما شعـ ـروا
وكيف يشعر من في كفه قَـ ـدح		يحدو به ملهياه: الناي والوتَـ ـ ـر
فقل لمن نام: أصبحتَ انتبه فلقـ ـد		مضى بك الليل نحباً وانقضى السحر
وانظر إلى الصبح سيفاً في يـ ـدي ملك		في ا من جنده التأييد والظّفَر
يرعى الرعايا بطَرف ساهر يقـ ـظ		كما رعاها بطَرف ساهر عمـ ـر(١٢٧)

وفي ذلك جرأة وإحقاق الحق في جهود يوسف وتسويغ الإعجاب به من خلال التعريض بملوك الطوائف

وتورد مصادر الأدب ما قاله المعتمد بن عباد في وصف شجاعة يوسف في معركة الزلاقة، بعد نفيه إلى أغمات، فرغم أنه منفي ومحبوس ومكبل بالقيود، بأمر من ابن تاشفين ، فإنه لم يجد بدا من الاعتراف بفضله وشجاعته وتقواه وورعه، ورغم سوء المعاملة التي لقيها أهله بحسب رواية المعتمد نفسه : "ولما خلع المعتمد وذهب إلى أغمات، طلب من حواء بنت تاشفين خباء عارية(١٢٨)، فاعتذرت بأنّه ليس عندها خباء"(١٢٩). وصف فيها ثبات يوسف ودوره الحاسم في المعركة؛ إذ لولاه لآلت الجزيرة إلى الكفر، ويثني على يوسف في ختام القصيدة على ألسنة المجاهدين (المتقارب):

ويوم العروبة ذات العدا		نصرت الهدا وأبيت الفرارا
ولولاك يا يوسف المـ ـتقي		رأينا الجزيرة للـ ـ ـكفر دارا
كأنـ ـك تحـ ـسبها نرجـ ـ ـساً		تُديـ ـ ـرالدماءعليهاعقـ ـارا
فلله درك في هولـ ـ ـ ـه		لقد زاد بأسك فيه اشتهـ ـارا
تزيد اجتراء إذا ما الرمـ ـاح		عند التناجز زدن اشتجـ ـ ـارا

لولا معاقرة العقار، لملأ ذكره البلاد.انظر، ابن بسام، **الذخيرة**، ق٢، مج١، ٢٥٦-٢٥٧، ابن الخطيب، **أعمال الأعلام**، ص ١٨٦.

١٢٧. ابن بسام، **الذخيرة**، ق٢، م١، ص 256-257.

١٢٨. حواء بنت تاشفين:أخت يوسف بن تاشفين، أديبة شاعرة جليلة، ذات نباهة وذكاء،وزوجة سير بن أبي بكر أشهر قواد المرابطين، البيان المغرب، ج٤، ص ٥٦-٥٧، وقد مدحها الأعمى التطيلي في قصيدة وردت في ديوانه تبين صفات أخيها القائد ابن تاشفين وتفضيله إياه على كل الملوك، منها:

يا أخت خير ملوك الأرض قاطبة		وإن أعدوا وإن أسموا وإن نسبوا
حواء ياخير من يسعى على قدم		ولست عبدك إن لم أقض ما يجب
قد عم برك أهل الأرض قاطبـ ـ ـ ـة		فكيف أُخرج عنه جارك الجنُب

انظر: **ديوان الأعمى التطيلي**، ص١٨

١٢٩. ابن عباد، **ديوان المعتمد**، ص٩٧. العماد الأصفهاني، **خريدة القصر**، ج١١،ص ١٤٤، المقري، **النفح**، ج٤،ص٢١٧.

إذا نار حربك ضرمتهـــا حسبنا الأسنةَ منك انتثـــارا
ستلقى فعالك يوم الحســا ب تنثر بالمسك منك انتثارا
وللشّهداء ثناء عليـــك بحسن مقامك ذاك النّهـــارا
وأنّهم بك يستبشـــرو ن ألا تَخافَ وألا تُضـَــارا
تريك الرماح القدود انثنــاء وتجلو الصفاح الخدود احمـرارا[١٣٠]

اهتم المعتمد بإظهار دهشته من شجاعة ابن تاشفين في قلب المعركة، فمثل ابن تاشفين لا ينتظر الأجر الدنيوي ، ويؤكد أنه قد حظي بالفوز العظيم عندما يلقى ربه .

وتُعد الشجاعة من أبرز الخصال التي خلعها الشعراء على يوسف، فهي سلاح الحرب وأهم أدواته في وقت احتاج المسلمون فيه إلى خوض الحروب ؛ كي تطهر نفسها وأرضها، وهذا ما يسوغ عناية الشّعراء بهذه السمة دون غيرها، ولم يتكلّفوا أن يخلعوا عليه من الصفات التي تُبذل عادة للممدوح، كالكرم والنّخوة والفصاحة والبيان، وغيرها.

و يصف ابن وهبون شجاعة يوسف وقوته وثباته في المعركة، ناقلا مشهد شدة المعركة؛ حيث تعلو الرماح عطشى إلى الدماء ولا يثبت في المعركة إلا الحسام الصارم في يدي جلد قوي حيث الفؤاد يحمل صاحبه لا الفرس وبه يخوض غمار الموت (الوافر):

تألّفت الوحوشُ عليه شتـّــى فما نقص الشّراب ولا الطّعـــام
وقفت بحيث تلحظُك العوالـــي وهن إلى مواردها هيـــــــام
ولم يثبت من الأشيـــــاع إلا شقيقك وهو صارمك الحســـــام
ولم يحملك طرفك بل فـــــؤاد تعود أن يخاض به الحمـــــام
يمان في يدي ماض يمــــان فلا نابي القرار ولا كهـــــام
ثبتّ به ثباتَ القطب لمـّــا أدار رحاه خطب لا يـُــرامُ[١٣١]

ولأبي بكر بن سوار[١٣٢] أبيات ينعت فيها علياً ولد يوسف بالشبل ويماثله بأبيه في الشجاعة(الكامل):

وإذا هزبر الغاب ضرى شبلـه في الغاب كان الشبلُ مثلَ أبيـــه
وإذا علي كان وارثَ ملكـــه فالسهم ملقى في يدي باريـــه[١٣٣]

وقد عرف عن هذا الشاعر أنّه غير متكسب بشعره قاله تحبباً لا تكسباً، ووفاء لا

---

١٣٠. وردت هذه الأبيات في **خريدة القصر**، ق٤، ص ٤٧٧. وفي **النفح**، ج٢، ص ٢١٧، **ديوان المعتمد بن عباد**، ص١٦٠. وفي الطبعة الأميرية في القاهرة،ص٩٧-٩٨.

١٣١. ابن بسام، **الذخيرة**، ق٢، م١، ص ٢٤٦.

١٣٢. محمد بن سوار الأشبوني(ت بعد ٥١٥هـ/١١٢١م)، شاعر مشهور، أسره النصارى، وجرت عليه المحن، وفداه أحد عشرة قضاة سلا، فمدحهم.انظر، البيان المغرب، ج٤، ص٤٧، ابن سعيد المغربي، **المغرب في حلى المغرب**،ج١، ص٤١١-٤١٢. ابن بسام، **الذخيرة**، ق٢، م١، ص٣١١،

١٣٣. ابن بسام، **الذخيرة**، ق٢، م٢، ص ٨٣٢. ابن عذاري المراكشي، البيان المغرب، ج٤/ص٤٧.

استجداء"[١٣٤]

مما يدلل على أن الشعر الذي جاء بعد مرحلة الانتقال من عصر الطوائف إلى عصر المرابطين ينصف ابن تاشفين عن طريق المرابطين، بلغة رصينة وصور فنية عالية لا تقل عن مستوى القصائد الفني التي قيلت في المعتمد وهو الشاعر العربي المحنك.

أفاد الشعراء مما يتحلى به ابن تاشفين من صفات التقوى والورع ليذكروه بأن العفو من شيم الكرام. يقول ابن عبد الصمد[١٣٥] مخاطباً يوسف وكرمه في أن يترفّق ببني عباد (الكامل):

لولا أمير المسلمين وفضلُـــــه		لم تكتَحلْ أجفانُكُم برقـــــــاد
وا يبقيه لكم ليصونَكُـــــم		من كل حادثة تخاف فـــــؤادي
أبقى عليكم ستره وأقالكُـــــم		قد يشفقُ الأمجاد للأمجـــــاد [١٣٦]

وتكشف معظم المقطعات مدى غيرة يوسف بن تاشفين على الدين ، فمزج الشعراء شجاعته وغيرته على دين ا ، وجعلوا غيرته هذه سببا في شجاعته.

ويجسد أبو بكر محمد بن سوار الأشبوني في مرثية طويلة قالها في ابن تاشفين معاني البطولة والإقدام، والسعي الدؤوب إلى الجهاد من غير كلال أو ملال [١٣٧] (الكامل):

أما مساعيك الكرام فإنهـــــا		خرجت عن التحديد والتشبيـــه
في كل عام غزوة مبـــرورة		تردي عديد الروم أو تفنيـــــه
تصلُ الجهاد إلى الجهاد موفّقـــا		حتّم القضاء بكل ما تقضيـــــه
ونجي ما دبرتَه كنجيّـــــــة		فكأن كل مغَيب تَدريـــــــــه

لما ثبت للاندلسيين صلاح ابن تاشفين وأنه غير طامع، وشدة خوفه من ا وما جهاده إلى في سبيل ا اصطبغت قصائد الشعراء بمعاني التقوى والإيمان، وجعلوا الدعاء له بالخير جزءا من بنية الأبيات الشعرية، كما جرى على المنابر، يقول أبو بكر (الكامل):

ملك الملوك وما تركتَ لعامـــل		عملاً من التقوى يشارك فيـــــه
يا يوسفٌ ما أنت إلا يوســـفٌ		والكل يعقوب بما يطويـــــــــه
اسمع أمير المسلمين وناصر ال		دين الذي بنفوسنا نَفديـــــــــه
جوزيتَ خيراً عن رعيتك التـــي		لم ترض فيها غير ما يرضيـــــه

ويحدد الشاعر صفة التواضع بوصفها واحدة من الصفات التي تعزز ما سبق من تقوى وشجاعة معا.

متواضعاً مظهر دينه فـــي		كل ما تخفيه أو تبديـــــــــه

---

١٣٤. ابن بسام، **الذخيرة**، ق٢، م٢، ص ٨١١.

١٣٥. ابن عبد الصمد: يوسف بن أبي القاسم خلف بن أحمد أبو بحر، من الصمديين الذين عرفوا بالتقدم بالكتابة، من كتّاب المعتمد، له نثر ونظم. انظر، ابن بسام، **الذخيرة**، ق٢، م٢، ٨٣١، ابن خاقان، **قلائد العقيان**، ١٠٦-١٠٨

١٣٦. ابن بسام، **الذخيرة**، ق٢، م٢، ص ٨٣١.

١٣٧. **المصدر نفسه**، ق٢، م٢، ص ٨٣١-٨٣٢.ابن عذاري المراكشي، **البيان المغرب**، ج٤/ص٤٧.

ولقد ملكتَ بحقّك الدنيا وكـــم ... ملك الملوك الأمر بالتمويـــه
لو رامت الأيام أن تحصي الـذي ... فَعلَت سيوفك لم تكن تحصيـــه

ويمضي في مدحه عن طريق خليفته علي الذي لا يقل عن أبيه تقوى وصلاحا وشجاعة:

إنا لمفجوعون منك بواحـــد ... جمعت خصالُ الخلق أجمع فيـه
ومضى قد استرعى رعيتَه ابنَـه ... فأقام فيهم حق مسترعيـــــه

ومما يلفت الانتباه أن بعض القصائد التي قيلت في غير يوسف من أهله وأوليائه وخاصته بعد استقرار المرابطين كانت لا تخلو من إشارة إلى دور القائد ابن تاشفين، وقد توصلت الدراسة بمقطوعة شعرية ذكرها صاحب الذخيرة على أنها للوزير أبي الحكم عمرو بن مذحج [(١٣٨)]، كتبها للوزير أبي العلاء بن زهر[(١٣٩)] يهنئه بسلامة مقدمه ، والمعروف أن الوزير أبا العلاء بن زهر هو طبيب ابن تاشفين وأشد المقربين إليه، يظهر فيها ممجدا أمير المسلمين معظما له (الطويل):

قدمتَ علينا والزمان جديـــد ... وما زلت تُبدي في النّدى وتعيـد
لقيت أمير المسلمين وظلــه ... عليك بما تهوى لديه يزيـــد
فقم بالمعالي واستقل بملكهـــا ... فأنت بملك العالمين قعيــد[(١٤٠)]

لعل قصائد المعتمد بن عباد التي قالها وهو في سجن إغمات يرثي فيها حاله وحال بناته ويسترحم ابن تاشفين تارة، ويخاطب تارة أخرى معاتبا إياه لكونه استمع إلى المغرضين الكارهين لأجواء الوئام التي كانت بينهما (المتقارب):

هم أوقدوا بين جنبيك نـــارا ... أطالوا بها في حشاك استعــارا

يتضح من هذا البيت أنه لا يستطيع إغفال عظمة هذا الرجل، وأن كل ما حيك به من دس وغمز على لغته وعلى وحشيته وعنفه ما هو إلا نار حاسد اتقدت في صدره.

وقلبي نزوع إلى يوسـُــف ... فلولا الضلوع عليه لطَــارا[(١٤١)]

تبرهن رائية المعتمد الطويلة بما فيها من ثناء ومديح لابن تاشفين ونسبة النصر إليه على أنها تصلح أن تكون وثيقة تاريخية تؤكد منزلة ابن تاشفين ومدى حب المعتمد له.

ومن اللافت أن جل الشعراء الذين كانوا من رواد بلاط المعتمد ترددوا عليه في سجنه وبكوه حزنا على ما آل إليه حاله ، لكنهم في الوقت نفسه لم يلوموا ابن تاشفين ولم يعنفوه على مصير

---

١٣٨. أبو الحكم عمرو بن مذحج بن حزم الأندلسي(ت٥٤٢هـ/١١٤٧م)، كان شاعراً بليغاً، وقيل عنه غلب بحسنه على لبه، ونقل له شعر في الوزير أبي العلاء بن زهر. ابن سعيد المغربي، **المغرب**، ج١، ٢٤٣-٢٤٤.

١٣٩. ابن زهر: هو الوزير أبو العلاء٥٢٥هـ/١١٣١م)، شاعر أندلسي، نشأ بشرق الأندلس، مال إلى المعتمد بإشبيلية، ولم يستقر بها إلاّ بعد خلع،المعتمد من قبل يوسف بن تاشفين.انظر، ابن بسام، **الذخيرة**، ق٢، م١، ٢١٨-٢٢٣.

١٤٠. ابن بسام، **الذخيرة**، ق٢، م٢، ص ٥٩٤.

١٤١. **المصدر نفسه**، ق٢، م١، ص١٥٩.

ابن عباد. والمعتمد نفسه لم يقترف إثم ذم ابن تاشفين ولم ينكر فضله على الأمة والدين ، رغم ثقل القيد في يديه وقدميه.

الخاتمة

تبين مما سبق أن ذكر ابن تاشفين في النصوص الشعرية لدى الشعراء الذين عاصروا فتوحاته ومعاركه ظل هامشيا من حيث الكم ، لا يكاد يتجاوز معركة الزلاقة بما لا يزيد على تجربة ثماني شعراء جاؤوا على ذكره في بضعة أبيات.

وظل مقترنا بمدح المعتمد الذي استحوذ على شعبية النصر، ولم تفرد له قصائد مخصوصة مقارنة بالفعل البطولي الذي قام به عندما أسهم في تأخير سقوط الأندلس ما يزيد على أربعة قرون.

وأرجعت الدراسة أسباب ندرة النصوص الشعرية التي تمجد ابن تاشفين إلى كون الشعراء شعراء بلاط وارتبط وجودهم بالقادة والحكام والسلاطين ، يتقاضون منهم العطايا ، وكانوا منشغلين بملوك الطوائف وخاصة بلاط المعتمد بن عباد، بوصفه شاعرا وأحد أبرز ملوك الطوائف حيث شيوع أجواء التكسب بالشعر، في حين تختلف شخصية ابن تاشفين كونها شخصية سياسية زاهدة في الدنيا، انشغل بتقريب الفقهاء والعلماء إلى مجلسه عوضا عن الشعراء. وبسبب تذبذب علاقة ملوك الطوائف بابن تاشفين كان عدم ميل شعراء البلاط إلى تخليده في شعرهم.

ورغم قلة النصوص الشعرية فإنه في ضوء الروايات التاريخية وما وصل الينا من شعر، بصورة الإيماءات والإشارات والصور المكثفة والمعاني الدينية القوية، بصورة المخاص من براثن الفرنج، والمقدس الذي يجلب السعد، حتى أضحى أيقونة قصائد المدح، يتمتع بالشجاعة، ومنطلقه التقوى، وقد مجدت القصائد هاتين الخصلتين(الشجاعة والتقوى)، مقترنا ذكره بذكر المعتمد. وأرجعت الدراسة ذلك إلى حساسية الحقبة التي ظهر فيها وإلى الدور الذي اضطلع به وإلى كونه غير عربي لا يحسن العربية بصورة من الصور، وإلى قصر المدة الزمنية التي مكثها في الأندلس مفضلا مراكش عاصمة المرابطين على كل مظاهر الدعة المتاحة في قصور الأندلسيين، تاركا أبناءه وقواده يديرون شؤونها الداخلية. واجتهدت الدراسة في أن عدم الاختلاط بالمجتمع الأندلسي أحد أهم الأسباب وراء عدم إيجاد مجال للتعرف إليه ومعرفة أهوائه وميوله.

ولم تغفل الدراسة تضارب الآراء في المصادر التاريخية في جواز ابن تاشفين إلى الأندلس، وانتهت إلى أن جوازه كان في سبيل ا ؛ لدرء مطامع الفرنج في السيطرة على الأندلس، ولم يكن رغبة في التوسع أو لتحقيق أطماع في السيادة.

The Image of Yusuf ibn Tashafin form Two Perspectives: Historical and Literary

Imtenan O.Smadi*, Amenah C. Badawi*

ABSTRACT

This study seeks to highlight the image of the Moroccan leader Yusuf ibn Tashafin from the perspectives of history and literature – specifically poetry – as a military leader who helped delay the demise of al-Andalus by more than four centuries. The significance of this study stems from the degree of variation in the narratives and reports about his military and political role recorded in the historical and literary sources. That is due, on the one hand, to differences in interpretations of the events that occurred, and, on the other hand, to the scarcity of poetic texts that praise him other than some about him and al-Mu‘tamid ibn ‘Abbad following their victory in the battle of al-Zallaqah (479 A.H./1086 A.D.).
To achieve that purpose, the study examines references to Yusuf ibn Tashafin in the historical sources and modern Arabic and foreign scholarship and what was said about him in literary works and collections of poetry in order to answer the following questions: Is there a divergence in reports about Ibn Tashafin in historical narratives and poetic texts? If so, what are the reasons for that divergence? Why do poets ignore him? The article attempts to do him justice by clarifying his image in the manifold references, allusions, allegories and religious meanings that the study of poetry found.

KEYWORDS: ibn Tashafin, Al-Mu'tamid , Al-Murabiten.

* Arabic Language Department, Faculty of Arts, The University of Jordan.
Received on 25/6/2012 and accepted for publication on 2/2/2012.